مجلة إسلامية ثقافية

رسالة النجف

العدد العاشر

تموز - آب - أيلول : 2007م 2007م

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية — لبنان

محتويات العدد

1	الإفتتاحية	التحرير
2	الإمامة المعجزة الإمام الهادي(ع) نموذجًا	الشيخ حاتم إسماعيل
3	الإمام الهادي (ع) والدفاع عن القرآن	د.خضر نبها
4	قبسات من نور الإمام الهادي (ع)	الشيخ نعيم نعمة
5	رسالة الإمام العسكري (ع) إلى ابن بابويه	الشيخ أمين ترمس
6	قراءة في عصر الإمامين العسكريين(ع)	الأستاذ حسن جابر
7	علاج النصوص المخالفة للعقل	المرجع الديني الشيخ محمد تقي الفقيه (قده)
8	القلب السليم	الشيخ أكرم جزيني
9	مرتكزات الغزو الثقافي	د. طلال عتريسي
10	دور الخط العربي في تطوير وسائل الكتابة	د. محمد إسماعيل بغدادي
11	الشيخ لطف الله الميسي	الشيخ محمد تقي محمد جواد الفقيه

الإفتتاحية

التحرير

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

يصدر هذا العدد الجديد من أعداد مجلة رسالة النجف في مقطعٍ من الزمان مشحونٍ **بذكرياتٍ** راسخةٍ **وأحداثٍ** جليلة.

أما **الذكريات**، فعنوانها شهر تموز، حيث خاضت قوى الطغيان، متمثّلة بالولايات المتحدة والأميركية وإسرائيل وحلفائهما من أوروبيين وعرب وغيرهم، حربًا لئيمة على الشيعة في لبنان، فكانت جراحات بالغة، وآلام شديدة... ولكنها كانت في الوقت عينه خيبةَ أملٍ لمشروع الهيمنة، ونصرًا مُظفّرًا لمشروع الرفض والممانعة، حقّقه أبناء الأئمة والمهتدون بهداهم.

وأحدث ذلك انقلابًا في شخصية هذه الأمة المُشتّتة التي تداعت عليها الأمم وشذاذ الآفاق من كل حدب وصوب.

فعاد إلى الأحرار الأمل وعاد إلى المستضعفين ثقتهم بأنفسهم وبقدرتهم على التغيير، وأيقنوا بأن **{اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}**، وأن النصر من عند الله.

وأما **الأحداث**، فكثيرة متشعّبة، وأبرزها الاعتداء الثاني على مقام الإمامين العسكريين من قبل التكفيريين الإرهابيين الذي يأتي بعد حوالى عام على الاعتداء الأول.

لقد فشلوا في إشعال فتنةٍ بين أبناء الأمة الواحدة، فلم يجدوا أمامهم سوى **{ بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ}**، فصبوا فيها جام حقدهم وانتقامهم، سعيًا في إطفاء نور الإمامة **{وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}.**

وإذا كان مُحكم القرآن يهتف بـ**{قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}**، ليت شعري فبأي دستور بعد كتاب الله يهتدون؟! وبأيّ شريعة بعد شريعة سيد المرسلين محمد (صلى الله عليه وآله) يعملون؟!

كلا، {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

لذا وجدت مجلة رسالة النجف أنه من الجدير أن يتمحور ملف عددها الحالي حول هذين الإمامين العظيمين الإمام علي الهادي (ع) والإمام الحسن العسكري (ع) نزيلي مدينة سامراء، لتُبرِز جانبًا من عظمة وأهمية دورهما في تاريخ الأمة، وليطّلع القارئ الكريم على بغية بعض أدعياء الإسلام من اعتدائهم على هذه المقامات الشامخة،

وهل هم من المستكبرين، أم أنهم يمثلون أداة في أيديهم يعملون جميعًا في اتجاه واحد ويخدمون غرضًا ومشتركًا؟!

انتهى

الإمامة المعجزة الإمام الهادي(ع) نموذجًا

الشيخ حاتم إسماعيل

.

الإمامة المعجزة الإمام الهادي نموذجًا

الشيخ حاتم إسماعيل

مقدمة

من المسائل الهامة والمثيرة للتساؤل، في قضية الإمامة، خصوصًا بالنسبة للأئمة المتأخرين (عليهم السلام)، مسألة تولي الإمام شؤون الإمامة، وهو في سن صغير جدًا، وقد بدأت هذه الظاهرة مع الإمام التاسع من أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وهو الإمام محمد بن علي الجواد (عليه السلام)، والذي تولى شؤونها ولم يتجاوز الثماني سنوات، وتلاه مباشرة، في هذه الظاهرة، ولده الإمام علي الهادي (عليه السلام)، الذي تولى الإمامة وهو في السادسة من عمره الشريف، ثم أعيدت الكرة ثانية مع الإمام الحجة (عجل الله فرجه)، الذي ورث الإمامة وهو في الخامسة من عمره الشريف، دون أن ننسى الإمام العسكري (عليه السلام)، الذي تولى الإمامة بعد أبيه الهادي (عليه السلام)، وهو في سن الرجولة، أي وهو في الثالثة والعشرين من عمره الشريف، الأمر الذي يشكل خرقًا لما يبدو وكأنه قاعدة لدى الأئمة المتأخرين.

والملاحظ في هذه الظاهرة أمران جديران بالتأمل، والوقوف عندهما:

أحدهما: توليهم وهم في سن الطفولة.

والآخر: أن اللاحق تولى الإمامة وسنه دون سن السابق.

الطفولة والإمامة

أما الأمر الأول: فإن المتعارف من سيرة الناس عبر التاريخ، أنهم لا يولون كبير أهمية لصغار السن على العموم، ويرونهم قاصرين عن تولي المناصب العالية، والمهام الخطيرة، ويسعون جهدهم لإزاحة من هم أصغر سنًا منهم، سواء كان ذلك بحق أم بغير حق.

وقد تجلى هذا التفكير بأوضح مظاهره، في تاريخ الإسلام من خلال تبرير الجماعة إزاحة أمير المؤمنين (عليه السلام) عن موقعه، الذي وضعه الله تعالى فيه ورسوله، فقد صرح عمر بن الخطاب بذلك لعبد الله بن عباس، أثناء حوار دار بينهما، فقال: (يا ابن عباس، أما والله، إن كان صاحبك هذا - أي علي (عليه السلام)- أولى الناس بالأمر

بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، إلا أنّا خفناه على اثنتين.

قال ابن عباس: فجاء بمنطق لم أجد بدًا معه من مساءلته عنه، فقلت يا أمير المؤمنين، ما هما؟

قال: خشيناه على حداثة سنه وحبه بني عبد المطلب)([1]).

وحاوره مرة أخرى، زاعمًا تعاطفه مع علي (عليه السلام)، فقال له: (يا ابن عباس، ما أرى صاحبك إلا مظلومًا، قال ابن عباس: فقلت في نفسي: والله لا يسبقني بها، فقلت: يا أمير المؤمنين، فاردد إليه ظلامته، فانتزع يده من يدي، ومضى يهمهم ساعة، ثم وقف فلحقته، فقال: يا ابن عباس، ما أظنهم منعهم عنه، إلا أنه استصغره قومه، فقلت في نفسي: هذه شر من الأولى، فقلت والله ما استصغره الله ورسوله حين أمراه أن يأخذ براءة من صاحبك. فأعرض عني وأسرع فرجعت عنه)([2]).

وفي محاورة ثالثة، يقول عمر لابن عباس: لقد كان علي فيكم أولى بهذا الأمر مني ومن أبي بكر، وبعد جواب ابن عباس له قال عمر: والله ما فعلنا الذي فعلناه من عداوة، ولكن استصغرناه، وخشينا أن لا يجتمع عليه العرب وقريش لما قد وترها([3]).

وتجدر الإشارة في هذه الحوارات إلى أن عمر بن الخطاب تارة ينسب الاستصغار إلى القوم، في ما يبدو كأنه تبرئة لنفسه، وبيان لقانون عام بين الناس، ولكنه لم يلبث أن أقر به وكان المبادر إلى ذلك الزعم، لأن من المعلوم أن أهل السقيفة لم يتجاوزوا خمسة أشخاص دعموا بيعة أبي بكر، بما فيهم أبو بكر نفسه وعمر، ولكن ذلك خارج عن بحثنا فعلاً.

زعامة المال

ثمة مقياس آخر يراه الناس في من يحق له منصب الإمامة، أشار إليه القرآن الكريم، حين طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يعين لهم ملكًا، يقاتلون تحت لوائه، قال تعالى: **{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ}**([4]).

فقد بينت هذه الآية المباركة أن نظرة عامة الناس إلى مسألة الحاكمية، من خلال بني إسرائيل، لا تنطلق على العموم، من مبررات موضوعية، يرونها في الولي، أو من فضائل وكمالات ذاتية، يتمتع بها من له حق الولاية، رغم إدراكهم الوجداني أن مسألة الاختيار منحصرة بيد المشرع، لا يحق للناس أن يتدخلوا فيه، الأمر الذي أدركه الملأ من بني إسرائيل، فطلبوا من النبي أن يبعث لهم ملكا، وأراد النبي أن يبين لهم أن المسألة لا ترتبط باختياره هو، بل الله تعالى هو الذي يختار دون سواه، ولذلك قال لهم في الآية المباركة المذكورة **{إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً}**، فهم مع ذلك يرون مقومات الملك في مقاييس أخرى غير المقاييس الإلهية، ومن أهمها المال الذي صرحت به الآية الشريفة.

وهذا الموضوع يستحق دراسة مستقلة، تبين أن الإمامة والولاية شأن إلهي، بنص القرآن الكريم، لسنا بصددها فعلاً.

المقياس الإلهي للولاية

إن نظرة الإسلام لهذه المسألة لا تتوافق مع نظرة الناس لها في كلا المقياسين، وما يرتبط بالمقام هو المقياس الأول.

إن القرآن الكريم صريح في بيان حقيقة أن عامل السن لا ينطوي على أية أهمية، كما يتوهمه الناس عادة، في أكثر من مورد:

ففي شأن يحيى (عليه السلام) يقول تعالى: **{وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً}**([5]).

ويقول تعالى بحق السيد المسيح (عليه السلام)، عندما اتهم اليهود أمه العذراء (عليها السلام) بالفاحشة: **{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً* وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً}**([6]).

وقد بيّن الإمام الرضا (عليه السلام) عدم أهمية السن في مسألة الإمامة، عندما سأله صفوان عن الإمام بعده، فأشار بيده إلى أبي جعفر (عليه السلام) وهو قائم بين يديه، وعمره إذ ذاك ثلاث سنين، قال صفوان: فقلت: وهو ابن ثلاث؟ قال وما الضير من ذلك، فقد قام عيسى بالحجة وهو ابن أقل من ثلاث سنين. وعن الخيراني قريب منه([7]).

ولقد حرص الأئمة (عليهم السلام)، ومنذ صدر الإسلام، على بيان حقيقة موقف الإسلام من الإمامة وميزانها، وعدم أهمية عامل السن فيها، إذا تمّت سائر المواصفات المعتبرة في شخصية الإمام أو الولي، ولذلك نجد أنهم (عليهم السلام)، وفي مختلف المراحل، كانوا يوجهون الأنظار إلى الأئمة الذين يلونهم في حياتهم، وهم لا يزالون في سن الطفولة، ويسلّطون الضوء على قدراتهم المعرفية في مختلف المجالات، وبصورة عملية، من خلال تصديهم للإجابة عن الأسئلة، والمحاورة مع الآخرين، ليتبين فضلهم وعلمهم، الأمر الذي كان له كبير الأثر في وجدان الأمة الإسلامية كلها، وظهرت لها حقيقة (أنهم يزقون العلم زقًا)، ترسّخت في أذهان عامة المسلمين.

الإمام الكاظم (ع) وأبا حنيفة

ويكفي أن نذكر شاهدًا واحدًا على ما نقول، من حياة الإمام الكاظم (عليه السلام) في زمان أبيه الصادق (عليه السلام)، فقد ورد أن أبا حنيفة دخل المدينة المنورة مرة، ومعه عبد الله بن مسلم، فقال له: يا أبا حنيفة، إن ها هنا جعفر بن محمد، من علماء آل محمد، فاذهب بنا إليه، نقتبس منه علمًا، فلما أتيا إذا هما بجماعة من علماء شيعته،

ينتظرون خروجه أو دخولهم عليه، فبينما هم كذلك إذ خرج غلام حدث، فقام الناس هيبة له. فالتفت أبو حنيفة فقال: يا ابن مسلم من هذا؟.

قال: موسى ابنه.

قال: والله لأخجلنه بين يدي شيعته.

قال: لن تقدر على ذلك.

قال: والله لأفعلنه.

ثم التفت إلى موسى (عليه السلام)، فقال: يا غلام، أين يضع الغريب في بلدتكم هذه؟

قال (عليه السلام): يتوارى خلف الجدار، ويتوقى أعين الجار، وشطوط الأنهار، ومسقط الثمار، ولا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، فحينئذ يضع حيث يشاء.

ثم قال أبو حنيفة: يا غلام ممن المعصية؟

قال (عليه السلام): يا شيخ لا تخلو من ثلاث:

إما أن تكون من الله، وليس من العبد شيء، فليس للحكيم أن يأخذ عبده بما لم يفعله.

وإما أن تكون من العبد ومن الله، والله أقوى الشريكين، فليس للشريك الأكبر أن يأخذ الشريك الأصغر بذنبه.

وإما أن تكون من العبد، وليس من الله شيء، فإن شاء عفا وإن شاء عاقب.

قال عبد الله بن مسلم: فأصابت أبا حنيفة سكتة، كأنما ألقم فوه الحجر. قال: فقلت له: ألم أقل لك لا تتعرض لأولاد رسول الله (صلى الله عليه وآله)([8]).

نظرة في أبعاد الحادثة

تتضمن هذه الحادثة أبعادا ثلاثة، على قدر كبير من الأهمية: الأول يرتبط بالإمام نفسه ومعارفه وكمالاته النفسية، والثاني يرتبط بموقف علماء الشيعة، وإقرارهم بعلمه واحترامهم له، والثالث يرتبط بموقف خصومهم من الأمرين الأولين.

ما يرتبط بالإمام (ع)

أما البعد الأول: فيكشف فيه عن قدرة الإمام على التعامل مع القضايا الفكرية والاجتماعية وغيرها، مهما كان صغيرًا في السن، وأنه يعلم مختلف المسائل والأحكام، الأمر الذي يطرح مسألة علمه على بساط البحث، إذ كيف يمكن للإنسان العادي أن يتوصل إلى المعارف، وهو في سن الطفولة، مهما أوتي من قدرات ذهنية وذكاء وقاد، وقد تجلى ذلك في التعبير عنه بأنه غلام حدث.

وقد أشار الإمام الرضا (عليه السلام) إلى هذا المعنى، فقد ورد عن معمر بن خلاد قال: سمعت الرضا (عليه السلام) وذكر شيئًا، فقال: ما حاجتك إلى ذلك، هذا أبو جعفر قد أجلسته مجلسي وصيرته مكاني، وقال: إنا أهل بيت يتوارث أصاغرنا عن أكابرنا القذة بالقذة([9]).

ويبدو أن خروج الإمام الكاظم (عليه السلام) إلى الناس في تلك اللحظة كان تدبيرًا حكيمًا، غايته بيان تلك الحقيقة سواء كان بأمر الإمام الصادق (عليه السلام)، أم كان بمبادرة منه (عليه السلام)، لأنه يصبّ في نفس الهدف والغاية، أعني بيان موقع الإمامة في الناس، وإظهار الخصائص التي لا بد أن يتمتع بها المرشح، لهذا المنصب الخطير بالممارسة، وإبراز الواقع أمامهم، في ما يعد تمهيدًا منطقيا لتولي الأئمة المتأخرين (عليهم السلام) مقاليد الإمامة وهم في سن مبكرة.

ولا يخفى ما في هذا التدبير من حكمة يشتمل عليها سلوك الأئمة العام، من خلال صيرورة تصديهم للمهمة الكبرى، في ما بعد، بعد عيشها في وجدان الأمة واقعًا مأنوسًا لا غرابة فيه.

خصوصًا وأن مسألة أبي حنيفة له تشتمل على فرعين معرفيين أحدهما نقلي، يتوقف على مقدار ما تعلمه المرء من قوانين وتشريعات فقهية، والآخر عقلي وهو يتوقف على قدرة المرء على تحليل المسائل العقلية، واختيار ما يوافق العقل السليم منها، أي أنها تكشف عن رجاحة عقله، وهما شرطان ضروريان لمن يتصدى لإمامة الدين، كما لا يخفى.

مع موقف علماء الشيعة

وأما البعد الثاني: فإن اهتمام علماء الشيعة به، وإجلالهم له، يكشف عن عمق معرفتهم بشؤون الإمامة، وإدراكهم حق الإمام (عليه السلام)، وهو كاشف عن شدة تواضعهم أمام الحق، كما يكشف عن مدى ما يتمتعون به من تقوى، إضافة إلى قبولهم بما أمر به الدين، وإن خالف أهواءهم، فإن من طبيعة العالم أن يرى نفسه، في موقع الإجلال والتقدير من قبل الناس، خصوصا إذا ترافق علمه مع تقدمه في السن، وبروزه في موقع اجتماعي معين، مما يدعوه إلى إبراز موقعه نفسه، ويصعب عليه أن يتقبل بروز الآخرين عليه، كما حصل من أبي حنيفة في هذه

الحادثة، أما أن يتواضعوا أمام هذا الغلام، ويقوموا إجلالاً له وهيبة منه، فهو على قدر كبير من الأهمية، خصوصًا إذا كان فيهم هشام بن الحكم، وهشام بن سالم، وأبو جعفر الأحول مؤمن الطاق وأمثالهم، ممن ملأت سيرتهم وقدراتهم المعرفية صفحات التاريخ، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، إذا أخذنا بعين الاعتبار مدى ما يوليه علماء الشيعة لأحكام العقل من أهمية، تبعا لما رباهم عليه الأئمة (عليهم السلام)، دل ذلك على مدى تبحرهم في علم الإمامة، ومدى انسجامها مع أحكام العقل، وأن إمامة من كان في سن الطفولة ليست لا تصادم أحكام العقل فحسب، بل هي تتوافق وتنسجم معها، وتؤكدها إذا استجمع الإمام الشرائط الخاصة بالمنصب المؤهل له.

كما تدل من جهة ثالثة، على قدرتهم الفائقة على دفع محاولات الخصوم لإحراجهم، وهذا ما يشير إليه موقف أبي حنيفة، حينما أراد إحراج الإمام أمامهم، فإن هذا الموقف إحراج لهم في الحقيقة، إذ لو فرض نجاحه في مسعاه، لم يكن إحراجًا للإمام نفسه، وتخجيلاً له كما زعم، لأن المفروض أنه لم يزل طفلاً حينها، فتعود القضية ردا لمقولة الشيعة المعروفة، في أن علم الإمام ليس كسبيًا، الأمر الذي يعني تزييف مقولتهم من أساسها، وإبطال التعيين الإلهي للمنصب، كما لا يخفى.

مع موقف الخصوم

وأما البعد الثالث: فهو يدل على أن خصوم الشيعة كانوا على اطلاع كامل ويقين راسخ في أن الأئمة (عليهم السلام) لا يجارون في العلم والمعرفة، مهما صغر سنهم، كما يدل عليه جواب عبد الله بن مسلم لأبي حنيفة، وتعليقه على ما حصل.

بل يدل على أن أبا حنيفة نفسه، كان على معرفة واطلاع تامين، بأن الإمام الكاظم هو الإمام بعد أبيه (عليهما السلام)، ولهذا حاول أن يقطع الطريق على إمامته (عليه السلام) في ما يبدو أنه لم يكن مقتنعًا بها، رغم معرفته بها واشتهارها. بالإضافة إلى معرفته بعلم الإمام (عليه السلام) قبل استقلاله بالإمامة فألقم الحجر.

وهذا يشير إلى وضوح مسألة الإمامة في أذهان عامة المسلمين، ومعرفتهم للأئمة بأشخاصهم، في أوقات مبكرة من حياتهم الشريفة، الأمر الذي يشكل قرينة هامة على صحة الأحاديث الواردة عن النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، في بيان أسمائهم وأنسابهم (عليهم السلام) حتى الإمام الثاني عشر (عجل الله فرجه).

المأمون والإمام الجواد (ع)

إن خير شاهد على وضوح المسألة في أذهان المسلمين، ما جرى بين المأمون العباسي وبين أقاربه من العباسيين، عندما أراد المأمون أن يزوج الإمام الجواد (عليه السلام) من ابنته أم الفضل، فخشي العباسيون أن يذهب الأمر من أيديهم، فحاولوا إقناعه بعدم المبادرة إلى ذلك، وكان من جملة ما ورد في الحوار أنه قال لهم: (.. وأما أبو

جعفر فقد اخترته لتبريزه على كافة أهل الفضل مع صغر سنه والأعجوبة به في ذلك، فقالوا له: إنه صبي لا معرفة له فأمهله ليتأدب ويتفقه في الدين ثم اصنع ما ترى، فقال لهم: ويحكم إنني أعرَفُ بهذا الفتى منكم، وإن أهل هذا البيت علمهم من الله تعالى ومواده وإلهامه). ثم عملوا على امتحانه (عليه السلام)، فأعدّوا اجتماعًا بينه وبين قاضي قضاة المأمون (يحيى بن أكثم)، فأعد عددًا كبيرًا من الأسئلة الصعبة بزعمه، راجيًا أن يُخجل الإمام (عليه السلام)، فأجاب عنها الإمام جميعا، فتحيّر يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والانقطاع وتلجلج حتى عرف أهل المجلس أمره، كما تقول الرواية([10]).

وهنا يبرز دهاء المأمون ومكره، فهو يدبّر لأمر خطير بحق الإمام، ولكن العباسيين لم يفهموا ما كان يرمي إليه، فأقنعهم بما يعلمه علم اليقين، دون أن يبين مراده الحقيقي، خوفًا من افتضاح أمره، وإن كانت النتيجة كلها بصالح الإمام (عليه السلام)، فأثبت لهم مرة أخرى أن الإمامة لا تقاس بعامل السن والكبر والصغر.

الحكمة من تنزل السن

وأما الأمر الثاني: فقد يرد إلى الأذهان سؤال، وهو أن إثبات قدرات الإمام الذهنية والعقلية والمعرفية، من خلال مناظرة، أو حوار بينه وبين الخصوم، قد لا تكون كافية لتصدّيه لموقع الإمامة، ووضعها موضع التنفيذ، على مستوى الواقع، خصوصًا إذا أخذنا بعين الاعتبار قضية التنازل في السن من الثمان سنوات مع الإمام الجواد (عليه السلام)، مرورًا بالست مع الإمام الهادي (عليه السلام)، وصولاً إلى الخمسة مع الإمام الحجة (عجل الله فرجه).

وتتجلى هذه الإشكالية على المستوى العملي، في تقبل الناس لهذه المسألة، وإن اقتنع العلماء بها على المستوى النظري، خصوصًا وأن الناس يتأثرون، على العموم، بالأجواء العامة المحيطة بهم، وبما تدركه عقولهم، وتؤثر به أهواؤهم وعواطفهم، سواء كانوا من ضعفاء الشيعة أم من غيرهم، بلا فرق بينهم من هذه الجهة.

استنادًا إلى ما تقدّم من معرفة الأمة، وعلى الأخص علماؤها وسياسيوها، بأسماء الأئمة (عليهم السلام) وأعيانهم، نظرا لإخبارات النبي (صلى الله عليه وآله)، والأئمة أنفسهم بذلك، حيث كان كل إمام يؤكد على من يخلفه من بعده، بالإضافة إلى تواتر الأحاديث المبشرة بالإمام المهدي (عجل الله فرجه)، الذي (يملأ الأرض قسطًا وعدلاً بعدما ملأت ظلمًا وجورًا)، اعتبر السلاطين والمخالفون أن هذا الإمام (عليه السلام) سيهدد عروشهم ودولهم، ويقضي على أمجادهم التي بنوها، على حساب المؤمنين والمستضعفين. لذلك لا بد لهم من القيام بحرب استباقية، وإجراءات وقائية ضد هذا الظهور المبارك، علّهم يفلحون في الإبقاء على مراكزهم، ويمنعوا خروجه المبارك، إن لم يستطيعوا القضاء على شخصه الشريف.

لقد أُخذت هذه المحاولات والإجراءات الوقائية، منذ عصر المأمون العباسي، ومن أتى بعده من خلفاء بني العباس، عبر وضع الأئمة تحت الرقابة الشديدة، بحيث يتمكنون من معرفة كل شاردة وواردة عن الأئمة (عليهم السلام)، بل ليتمكنوا من عدّ أنفاسهم، إن استطاعوا ذلك، اتقاء للخطر المحدق بهم، فإنهم، وإن تباينت مظاهر سلوكياتهم

معهم وتنوعت، ابتداء بالمكر والدهاء، من خلال إعطاء ولاية العهد صوريا للإمام الرضا (عليه السلام)، ثم تزويج المأمون ابنته للإمام الجواد، إلى وضع الإمامين العسكريين (عليهما السلام) تحت الرقابة العسكرية المباشرة، من قِبل المتوكل العباسي ومَنْ قبلَه وبعدَه، إلا أن كل ذلك قد هدف إلى تصفية قضية الإمام المهدي (عجل الله فرجه)، لكن الأئمة (عليهم السلام) استطاعوا إفشال هذه المخططات والمحاولات، بحكمتهم وحسن تصرفهم مع السلاطين، دون أن يثيروا الشبهات حولهم من جهة، ومع أتباعهم وشيعتهم من جهة أخرى، بما يضمن سلامة الطريق، حتى أوصلوا مركب الإمامة إلى شاطئ الأمان والغاية المنشودة.

وهنا يبرز وجه الحكمة في عدم ظهور الإمام الحجة (عجل الله فرجه) إلى العيان، وأهمية غيبته وإمامته في سن مبكرة، فإن نتيجة ذلك وقوع الإرباك والحيرة لدى الحكام، واهتزاز عروشهم، لعدم معرفتهم بطريق الخلاص منه، وانسداد السبل بوجههم، فلا يعلمون ماذا يفعلون.

وهذا بخلاف ما إذا كان (عجل الله فرجه) ظاهرا للعيان، أو طالت فترة بقاء الإمام العسكري (عليه السلام) على قيد الحياة، فإن ذلك يعني شدة المضايقات، التي سيتعرض لها هو وعائلته وأتباعه، لبقاء الأمل عند الحكام في الوصول إليه وقتله، مما يعني أن الإرباك والضياع سيطال الموالين للأئمة وشيعتهم، وربما يضع الإمام (عجل الله فرجه) في دائرة الخطر الداهم والمستمر.

ولما اقتضت الحكمة الإلهية أن يتولى الإمام الثاني عشر مهام الإمامة، في هذه السن المبكرة، كان لا بد من إقناع الناس بإمامته، وبجدارته لهذا المنصب الخطير، على المستوى العملي، وإلا أدى ذلك إلى ضياع الشيعة، واستقواء الآخرين عليهم، إما سخرية منهم لصغر إمامهم في السن، وعدم إمكان قدرته على القيام بمهام الإمامة وهو طفل، لعدم حصول أية سابقة لذلك في تاريخ الإسلام، أو لإنكار وجوده أساسًا، خصوصًا وأنه لم يكن ظاهرًا للعيان، بل كان بعيدًا عن أعين الحكام وجواسيسهم، وكان يظهر أمام خلص شيعته ومواليه، وهذا من أشد المحن التي تواجه الأمة، على الصعيدين النظري والعملي على حد سواء، فكان التمهيد لذلك بتولي الإمامين الجواد والهادي (عليهما السلام) مهام الإمامة في سن مبكرة. حتى إذا أثبتت هذه التجربة نجاحها على الصعيد العملي، كان قبول إمامته (عجل الله فرجه) طبيعيًا ومبررًا، وقاطعًا لحجة الخصوم.

ولعله لهذا السبب، كانت البداية مع الإمام الجواد (عليه السلام)، وهو في الثامنة من عمره الشريف، فإن في ذلك تخفيفًا للصدمة التي ربما أصيب بها الناس، فإذا نجح في إمامته على أحسن وجه، أمكن الانتقال إلى من هو أصغر سنًا منه.

وهذا بخلاف ما إذا بدأت مباشرة بسن مبكرة جدًا، دون تهيئة النفوس والعقول لقبول إمامته، فإنها ستواجه بالرفض والإنكار من قِبَل شيعته قَبْل الآخرين.

وهذا ما يفسر الحديث الوارد عن أبي يحيى الصنعاني قال: كنت عند أبي الحسن الرضا (عليه السلام)، فجاء بابنه أبي جعفر (يعني الإمام الجواد) وهو صغير، فقال: هذا المولود الذي لم يولد مولود أعظم بركة على شيعتنا منه([11]).

حيث أن الظاهر أن البركة التي يتحدث عنها الإمام (عليه السلام)، هي أنه فاتحة الإثبات العملي، والتمهيد الجاد لقبول فكرة الإمام المهدي (عجل الله فرجه) وإمامته، وهو صغير السن.

يتبع =

---

[1] - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2، ص57، وج6، ص50-51

[2] - شرح نهج البلاغة، ج12، ص46.

[3] - الغدير، للعلامة الأميني، ج1، ص389.

[4] - سورة البقرة، من الآية:247.

[5]- سورة مريم، آية:12.

[6]- سورة مريم، آية:29-31.

[7]- الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ابن الصباغ المالكي، ص261-262.

[8]- الاحتجاج، الطبرسي، ج2، ص387-388.

[9]- الفصول المهمة، مرجع مذكور، ص261.

[10]- إعلام الورى بأعلام الهدى، الطبرسي، ص335-336.

[11]- أعلام الورى، مرجع مذكور، ص332.

.

تتمة مقال = الإمامة المعجزة الإمام الهادي نموذجًا

إمامة الإمام العسكري (ع)

من جهة أخرى، اقتضت الحكمة الإلهية، أن تطول فترة حكم الإمام الهادي (عليه السلام)، حتى يشب الإمام العسكري (عليه السلام)، ويتولى شؤون الإمامة، وهو كبير في السن نسبيًا، وفي هذا دفع لما يمكن أن يعيّر به الشيعة، من أنهم لم يبق لديهم من الرجال من هو مؤهل لتولي منصب الإمامة، فقالوا بإمامة الصبيان، وهذا يشكل جانبًا آخر، من جوانب الحرب الفكرية والنفسية، ضد الشيعة.

من ناحية أخرى، فقد طالت فترة انتظار الإمام العسكري (عليه السلام)، قبل أن يرزق بولده المبارك، فقد عاش مع أبيه الهادي (عليه السلام) حوالى ثلاث وعشرين سنة، وعاصر فيها كل الهموم والمضايقات التي وضعت بوجه أبيه، من ضغوط نفسية، وإقامة جبرية، ومنع الزيارات عنه وغير ذلك.

وبعد توليه الإمامة بعد أبيه (عليه السلام) بحوالى السنة ولد الإمام الحجة (عجل الله فرجه)، وكانت ولادته سرًا عن الناس، إلا من خلص أصحابه وشيعته، نظرًا للمراقبة الشديدة التي كانت تحيط به من قبل الحكام، الذين كانوا ينتظرون ولادته المباركة، ثم يعمدون إلى قتله في مهده.

يضاف إلى ذلك الفترة الطويلة التي أمضاها في السجن، لعلهم ينالون بغيتهم منه، فخاب فألهم، وطاش سهمهم، فإنهم بعد فشل سعيهم، ويأسهم من بلوغ مرادهم، وربما اطمئنانهم النسبي إلى عدم ولادته (عجل الله فرجه) ولد الابن المبارك وترعرع في كنف الإمامة والولاية، حتى الخامسة من عمره الشريف، ثم استقل (عجل الله فرجه) بالإمامة بعد أبيه (عليه السلام)، فظهر أمام الملأ حين الصلاة على أبيه (عليه السلام)، وكفى به تكذيبًا عمليًا لمقولتهم، وتصديقًا لوعد النبي (صلى الله عليه وآله)، وسائر الأئمة الطاهرين بخروجه الشريف.

إمامة الإمام الهادي (ع)

إن إمامة الهادي (عليه السلام) مليئة بالإعجاز والكرامات، التي ظهرت على يديه، لحفظ الإسلام، وخط الولاية، فهو رغم صغر سنه استطاع أن يقلق سلاطين عصره، وأن يثبت قدرته الفائقة بوجه جورهم وجبروتهم.

فقد بدأ ولايته أيام المعتصم، الذي قتل أباه الإمام الجواد (عليه السلام)، وأراد المعتصم أن يؤثّر على حياة الإمام الهادي (عليه السلام)، فعهد إلى عمر بن الفرج، وأمره أن يذهب إلى المدينة، ويختار له مؤدبًا بنفسه،على أن يكون المؤدّب معروفًا بالانحراف والبغض لأهل البيت لعله يربيه على بغضهم. فاختار الجنيدي لهذه المهمة، بإرشاد من والي المدينة حينها، وعهد إليه أن يمنع الشيعة من زيارته والاتصال به، وكان الجنيدي شديد البغض للعلويين، فقبل المهمة بعد أن عين له راتبًا شهريًا.

وكانت النتيجة أن أصبح الجنيدي من أتباع الإمام ومواليه، فقد التقى به أحدهم مرة، وهو محمد بن جعفر، وقال له: (ما حال هذا الصبي الذي تؤدبه؟). فأنكر الجنيدي ذلك، وراح يقول: (أتقول هذا الصبي ولا تقول هذا الشيخ؟... إلى أن قال: ثم إنه يملي أبوابًا أستفيده منه، فيظن الناس أني أعلمه، وأنا والله أتعلم منه).

والتقاه مرة أخرى فسأله: ما حال هذا الصبي؟. فأنكر الجنيدي ذلك، وقال: (دع عنك هذا القول، والله تعالى لهو خير أهل الأرض، وأفضل من برأه الله تعالى إلخ...الحديث([1]).

وهو الذي عاصر أعتى عتاة بني العباس، وهو المتوكل، وأشدهم بغضًا لعلي وأبنائه (عليهم السلام) ولشيعتهم، وبلغ من حقده وحنقه عليهم، أنه كان إذا بلغه أن أحدًا يتولى عليًا (عليه السلام) وأهله قصده بالدم والمال. وقد بلغت به الجرأة والكراهة لهم أنه أمر بهدم قبر الإمام الحسين (عليه السلام)، وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه([2]).

معجزاته وإخباره بالغيب

ونظرًا لأهمية الموقف، وقطعًا لكل شك في قدرته وإمامته (عليه السلام)، عند عامة الناس، فقد ظهر على يديه الشريفتين كثير من المعجزات والكرامات، التي تبين علو مقامه (عليه السلام) وجدارته بالموقع الذي يشغله.

فقد بدأ ولايته الشريفة بإخبار إعجازي عن وفاة أبيه الإمام الجواد (عليه السلام)، فقد كان في المدينة المنورة، وكان الإمام الجواد في بغداد، فجاء مرعوبًا حتى جلس في حجر أم أبيها بنت موسى، فقالت له: مالك؟ فقال لها: مات أبي والله الساعة.

فقالت له: لا تقل هذا.

قال: هو والله ما أقول لك.

قالت: فكتبنا ذلك، فجاءت وفاة أبي جعفر (عليه السلام) في ذلك اليوم([3]).

ومن ذلك ما أخبر به خيران الأسباطي، قال: قدمت على أبي الحسن علي بن محمد (عليهما السلام)، فقال لي: ما خبر الواثق عندك؟ قلت: جعلت فداك تركته في عافية، أنا من أقرب الناس به عهدًا، عهدي به منذ عشرة أيام. فقال لي: إن أهل المدينة يقولون أنه قد مات. فقلت أنا أقرب الناس عهدًا به. فقال: إن الناس يقولون إنه مات. فلما قال لي أن الناس يقولون، علمت أنه يعني نفسه. ثم قال لي: ما فعل جعفر؟ قلت تركته أسوأ الناس حالاً في السجن. قال فقال لي: أما إنه صاحب الأمر. ثم قال: ما فعل الزيات؟ قلت: الناس معه والأمر أمره. فقال: إنه شؤم عليه. قال ثم إنه سكت، وقال لي: لا بد أن تجري مقادير الله وأحكامه، يا خيران مات الواثق، وقد قعد جعفر المتوكل، وقد قتل ابن الزيات. قلت: متى، جعلت فداك؟ فقال: بعد خروجك بستة أيام([4]).

ومن معجزاته (عليه السلام) أنه لما أشخصه المتوكل إلى سامراء، ذكر صالح بن سعيد، فقال: دخلت على أبي الحسن (عليه السلام) يوم وروده بسر من رأى، فقلت له: جعلت فداك، في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك، حتى أنزلوك هذا الخان الأشنع، خان الصعاليك، فقال: ها هنا أنت يا ابن سعيد، ثم أومأ بيده، فإذا أنا بروضات آنقات، وأنهار جاريات، وجنات بينها خيرات عطرات، وولدان كأنهم اللؤلؤ المكنون، فحار بصري وكثر عجبي، فقال لي: حيث كنا فهذا لنا يا ابن سعيد، لسنا في خان الصعاليك([5]).

ومن الملاحظ أن مختلف معجزاته وكراماته (عليه السلام)، كانت تكتسي طابعًا دعويًا واجتماعيًا، يتبين من خلالها أنه أراد (عليه السلام) تثبيت قلوب المؤمنين، وهداية المخالفين، ورد كيد المتربصين به شرًا، كما يظهر ذلك من ملاحظة ما ذكره المؤرخون منها.

حاله مع المتوكل

رغم القيود الصارمة، والمراقبة الشديدة، ومحاولات منع الشيعة من الاتصال بالإمام الهادي (عليه السلام)، إلا أنه استطاع أن يشكل ظاهرة مهمة في المدينة المنورة، بل في الدولة الإسلامية في مختلف بقاعها، وهذا ما أخاف السلاطين وأتباعهم.

فقد ورد أن المتوكل العباسي أشخصه من المدينة المنورة إلى بغداد سنة 234هـ([6])، ثم من بغداد إلى سر من رأى، فأقام بها عشرين سنة وتسعة أشهر([7])، ليكون تحت رقابته، بعدما بلغه من ميل الناس إليه فخاف منه([8]).

يقول يحيى بن هرثمة، وهو الذي ذهب إلى المدينة وأشخصه منها إلى المتوكل، قال: فذهبت إلى المدينة، فلما دخلتها ضج أهلها ضجيجًا عظيمًا ما سمع الناس مثله، خوفًا على علي، وقامت الدنيا على ساق، لأنه كان محسنًا إليهم، ملازمًا للمسجد، لم يكن عنده ميل إلى الدنيا.

قال يحيى: فجعلت أسكّنهم وأحلف لهم أني لم أؤمر فيه بمكروه، وأنه لا بأس عليه. ثم فتشت منزله، فلم أجد فيه إلا مصاحف، وأدعية، وكتب العلم، فعظم في عيني، وتوليت خدمته بنفسي، وأحسنت عشرته([9]).

وهذه القصة، إن دلت على شيء، فإنما تدل على مدى قدرة الإمام (عليه السلام) على التأثير في النفوس، بحيث كان اعتراض أهل المدينة أشبه بثورة ضد السلطة الحاكمة، حتى اضطر يحيى إلى أن يحلف الأيمان لهم بأنه لا يريد به شرًا.

وقد حصلت هذه الحادثة، والإمام (عليه السلام) في العشرين من عمره الشريف، أو دون ذلك بقليل، إذ أنها حصلت في سنة 234هـ كما تقدم، وأما ولادته فكانت سنة 214هـ، فاضطر المتوكل أن يظهر التأسف على ذلك، والمبالغة في إكرامه.

ولكن ذلك لم يكن نهاية المطاف، في ظلم المتوكل له ولأصحابه، فإنه بعدما فرض عليه الإقامة في سامراء، ووضعه تحت الرقابة المشددة، كثيرا ما كان يرسل شرطته وجلاوزته ليفتشوا منزله بحثًا عن أموال أو سلاح، أو عن أي دليل يمكنه منه، ولكنهم يرجعون خائبين، ويخرج الإمام (عليه السلام) منها ظافرًا.

محاولة إحراجه علميًا

من جملة الأساليب التي اعتمدها المتوكل العباسي، لإسقاط هيبة الإمام (عليه السلام)، والتأثير على قواعده الشعبية، محاولة إحراجه على المستوى العلمي، وإثبات ضعفه في المسائل العويصة والحساسة، فقد قال المتوكل لابن السكيت: اسأل ابن الرضا مسألة عوصاء بحضرتي، فسأله، فأجابه الإمام. فقال يحيى بن أكثم: ما لابن السكيت ومناظرته، وإنما هو صاحب نحو وشعر ولغة.

ثم رفع قرطاسًا فيه مسائل، فأملى الإمام جوابها على ابن السكيت، وأمره أن يكتبها، فلما قرأ يحيى بن أكثم أجوبة الإمام (عليه السلام) قال للمتوكل: ما نحب أن نسأل هذا الرجل عن شيء بعد مسائلي هذه، وأنه لا يرد عليه شيء بعدها إلا دُونَها، وفي ظهور علمه تقوية للرافضة([10]).

وهذا اعتراف صريح من ابن أكثم بعجزهم عن مجاراته (عليه السلام)، وأن كل محاولاتهم العلمية ستبوء بالفشل، وستنقلب الأمور لصالحه وصالح شيعته.

ويذكر المؤرخون أن المتوكل كثيرا ما كان يعطي المبالغ الطائلة، ويجعل الجعول الكثيرة لمن يستطيع إحراج الإمام (عليه السلام)، حتى حاول الاستعانة بالمشعوذين للوصول إلى غايته.

في مقابل ذلك نجد الإمام (عليه السلام) قد حرص على بيان قدراته العلمية، في مختلف المجالات أيضا، حتى أنه كان يخاطب الناس في لغاتهم الخاصة كأنه واحد منهم، مما كان يثير استغرابهم وتعجبهم، وبالتالي توليهم له وإقرارهم بإمامته([11]).

تحركات الإمام (ع)

لقد استطاع المتوكل أن يؤثر على المؤرخين في نقلهم سيرة الإمام (عليه السلام) وتحركاته، وبذلك وقع أكبر الظلم بحق هذا الإمام العظيم، فلم يذكر التاريخ من تحركاته وأعماله إلا ما لا يكاد يشفي الغليل، بالنسبة لتحركاتهم السياسية والاجتماعية، وهذه الظاهرة نجحت بحق أبيه الجواد وابنه العسكري (عليهما السلام).

إلا أن يد الظلم والجبروت مهما عبثت بأقلام التاريخ، ومهما سيطر الظلام على صفحات الواقع، لكنه لا يمكن أن يحجب نور الحق وشمس الإسلام، فقد وردت بعض الشذرات القليلة، التي تتحدث عن أعمال الإمام (عليه السلام) وحركاته، بحيث يمكنها أن تسلط بعض الضوء وسط الظلام الدامس، خصوصًا تلك التي تتحدث عن كراماتهم

ومعجزاتهم، ذات الوجوه والظروف المختلفة، التي كان الإمام يستفيد منها، في بيان الوجهة السليمة للدين، دون أن يثير حفيظة الحكام وأحقادهم، بحيث يتمكن الباحث عبر مراجعتها واستقرائها، من أن يكشف شيئا من جوانب الحق.

فقد قال خطيب يلقب بالهريسة للمتوكل: ما يعمل أحد بك ما تعمله بنفسك في علي بن محمد، فلا في الدار إلا من يخدمه، ولا يتعبونه يشيل الستر لنفسه، فأمر المتوكل بأن لا يخدمه أحد، ولا يشيل الستر بين يديه، فهبّ هواء فرفع الستر حتى دخل وخرج، فقالوا: شيلوا له الستر بعد ذلك، فلا نريد أن يشيل له الهواء([12]).

تشير هذه الرواية إلى مدى قدرة الإمام (عليه السلام) على التعامل مع الأحداث، فإن منطق الأمور يفرض، أن لا يكون هؤلاء الخدم من أتباعه وشيعته بادئ الأمر، وهو ما يتضح بملاحظة مواقف المتوكل منه ومن شيعته، ومحاولات التضييق عليه، وتشديد الرقابة في سامراء، الأمر الذي يعني أنهم زرعوا في بيته (عليه السلام) لمراقبته، وإحصاء جميع تحركاته، غير أنه بحكمته وحسن تدبيره، استطاع أن يكسر الحصار المفروض عليه بواسطتهم، والتواصل مع شيعته ومحبيه من خلالهم.

ومما يؤكد هذه الحقيقة ما تقدم من حديث يحيى بن هرثمة عندما أشخصه من المدينة بأمر المتوكل، بعدما فتش بيته رجاء أن يجد مالاً أو سلاحا يأخذه به. كما نمي إلى المتوكل أن لديه مالاً كثيرًا وسلاحًا يأتيه من شيعته في قم، وأنه عازم على الوثوب بالدولة، فبعث إليه جماعة من الأتراك فهاجموا داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئًا ورجعوا خائبين([13]).

هذا مع أن هذه القصة كانت صحيحة، كما يحدث الفتح بن خاقان، الذي أرسله المتوكل ليرصد وصول الأموال إلى الإمام (عليه السلام)، فذهب إلى دار الإمام ورأى وصولها إليه بطريق إعجازي، مما دفعه إلى الإيمان به واليقين بحقه([14]).

وكان الإمام (عليه السلام) ينفق هذه الأموال على ضعاف المسلمين بسخاء منقطع النظير، يرفع حاجاتهم ويحل مشكلاتهم، كما تحدثت كتب التاريخ، وأفصحت عنه تارة بإبراز معجزاته، وأخرى ببيان كراماته، كما تقدمت الإشارة إليه، ما يدل على ما كان يتمتع به من قدرة على مواجهة الأحداث، والتعامل معها، بصورة لا تثير الشبهات من جهة، وتخدم قضية الحق، وتوصل سفينة الإمامة إلى الغاية المنشودة، رغم صغر سنة الشريف، والظروف القاسية والقاهرة التي أحاطت به طيلة حياته الشريفة.

انتهى

---

[1]- أعلام الهداية، ج12، ص80-81.

[2]- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج7، ص55.

[3]- كشف الغمة في معرفة الأئمة، الاربلي، ج4، ص22، تحقيق علي الفاضلي، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت، 1426هـ

[4]- الإرشاد، الشيخ المفيد، ص329.

[5]- مناقب آل أبي طالب، ابن شهر أشوب، ج4، ص442.

[6]- تاريخ الطبري، ج9، ص83 طبعة عز الدين.

[7]- تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي، ص359.

[8]- نفس المصدر السابق.

[9]- نفس المصدر السابق، ص 360.

[10]- مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج4، ص435-437.

[11]- يلاحظ مثلا: كشف الغمة في معرفة الأئمة، مرجع مذكور، ج4، فقد ذكر فيه الكثير من الشواهد على ذلك.

[12]- مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج4، ص438.

[13]- تذكرة الخواص، مرجع مذكور، ص360.

[14]- مناقب آل أبي طالب، مرجع مذكور، ج4، ص444.

الإمام الهادي (ع) والدفاع عن القرآن

د.خضر نبها

د.خضر نبها

الإمام الهادي (عليه السلام) هو عاشر الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، اسمه علي وكنيته أبو الحسن([1])، وأشهر ألقابه: النقي، الهادي، والعالم، والفقيه، والناصح، والأمين، والطيب، والمتوكل، ولكنه (عليه السلام) كان يخفي هذا اللقب الأخير ويأمر أصحابه بالإعراض عنه لكونه لقب الخليفة المتوكل على الله في ذلك الزمان([2]).

ولد سنة 212 هـ، قرب المدينة، وتوفي سنة 254هـ في مدينة سرّ من رأى، بعد أن مكث فيها عشرين سنة ودفن في المنزل الذي سكن فيه (عليه السلام)([3]).

عاصر الإمام الهادي (عليه السلام) ستة من خلفاء بني العباس وقد عانى معهم الشدائد والصّعاب([4])، وأكثر من تحامل على الإمام الهادي هو المتوكل، فهو من أرسل إلى الإمام بالحضور من المدينة إلى سامراء، وفي سنة 234هـ أشخص المتوكل إلى الفقهاء والمحدثين([5]) وأمرهم أن يجلسوا للناس وأن يحدّثوا بالأحاديث التي فيها ردّ على المعتزلة والجهمية وأن يحدّثوا الأحاديث في الرؤية([6])، وكل ذلك نتيجة رؤيا قد رآها المتوكل في المنام([7]).

وفي سنة 236هـ أمر المتوكل بهدم قبر الإمام الحسين (عليه السلام) وهدم ما حوله من المنازل والدور، وأن يبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه، فنادى صاحب الشرطة في الناحية: "من وجدناه عند قبره بعد ثالثةٍ، بعثنا به إلى المطبق"([8]).

ومن هنا نفهم ما روي عن أئمة أهل البيت (عليه السلام) في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) وأنها تعادل أربعين حجة، وغيرها من الأحاديث التي تشجع على زيارة قبر الإمام الحسين (عليه السلام) حتى ورد "من ترك السعي في حوائجه يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة"([9])، و"من كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه جعل الله عز وجل يوم القيامة يوم فرحه وسروره"([10])، وغيرها من الأحاديث.

وبعد سنة واحدة من هدم المتوكل لقبر الحسين (عليه السلام) أي في عام 237 هـ، قُرئ كتاب المتوكل بتخلية كل من حبسه الخليفة الواثق في خلق القرآن([11])، وطبعًا هذا من باب نصرة أهل السنة على المعتزلة لأن من كان في السجن هم من أصحاب الحديث.

وفي هكذا أجواء ضاغطة وقاسية في نصرة المتوكل لأصحاب الحديث، قام الإمام الهادي (عليه السلام) محاولاً تبيان موقف أهل البيت (عليهم السلام) من المسائل الفكرية المطروحة، ونستطيع أن نختصر بعض هذه المسائل في مسألتين تتعلقان بالقرآن الكريم هما:

1- مسألة تحريف القرآن.

2- مسألة خلق القرآن.

وهذا ما سوف نعالجه في بحثنا هذا.

1- مسألة تحريف القرآن

كان في عصر الإمام الهادي (عليه السلام) بعض التشكيكات حول مسألة التحريف والنقص في القرآن الكريم، فلذلك وقف الإمام (عليه السلام) في مواجهة القائلين بتحريف الكتاب، وخصوصًا الغلاة، ممن يُحسبون -زورًا- على الشيعة في الوقت الذي كان عند أهل السنّة جماعات تقول بالتحريف ولهم في ذلك روايات قد عرضها بالتفصيل الدكتور فتح الله المحمدي في كتابه (سلامة القرآن من التحريف)، حيث قسمها إلى ستة أنواع([12]) إلا أن ذلك يُغمض عنه، لأن أهل السنّة أو أصحاب الحديث كانوا من المقربين للحاكم في زمانه.

ولكن مما يؤسف له حقًا أن كل تهمة وانحراف تاريخية تنسب إلى المغلوبين والمعارضة المضطهدة، بينما يُعطى الغالب والحاكم وشيعته كل الصفات الحسنة والصورة الملمعة([13])، مهما يكن، فقد تصدى الإمام الهادي (عليه السلام) للقول بالتحريف والنقص في القرآن، وفي رسالة رائعة للإمام الهادي (عليه السلام) عرضها ابن شعبة في كتابه تحف العقول والتي كتبها الإمام (عليه السلام) أصلاً كردّ على أهل الجبر والتفويض، يُشدد فيها عليهم، ويؤكد في بدايتها على سلامة القرآن وأصالته ومرجعيته في حياتنا، حيث يقول (ع): (... وقد اجتمعت الأمة قاطبة، لا اختلاف بينهم، أن القرآن حق لا ريب فيه عند جميع أهل الفرق، وفي حال اجتماعهم مُقرّون بتصديق الكتاب وتحقيقه، مصيبون، مهتدون، وذلك بقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): "لا تجتمع أمتي على ضلالة" فأخبر أن جميع ما اجتمعت عليه الأمة كلها حق، هذا إذا لم يخالف بعضها بعضا. والقرآن حق لا اختلاف بينهم في تنزيله وتصديقه، فإذا شهد القرآن بتصديق خبر وتحقيقه وأنكر الخبر طائفة من الأمة لزمهم الإقرار به ضرورة حين اجتمعت في الأصل على تصديق الكتاب، فإن "هي" جحدت وأنكرت لزمها الخروج من الملة)([14]).

وتابع علماء الشيعة الإمامية أئمتهم (عليه السلام) في الردّ على هذه المسألة لاحقًا كالفضل بن شاذان (ت 260هـ)، والشريف المرتضى (ت436هـ)، والطبرسي (ت584هـ)، وابن طاووس (ت664هـ)، والعلامة الحلي (ت726 هـ)، والشيخ محمد جواد النجفي (ت1352هـ)، وصاحب الميزان العلامة الطباطبائي (ت1402هـ)، والخوئي (ت1413هـ)، وغيرهم من العلماء([15]).

2- مسألة خلق القرآن

مصدر هذه المقولة كان الجعد بن درهم([16])، وقد اتهم حينها من قِبل حكومة هشام بن عبد الملك أنه كذّب الآية الكريمة **{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}**([17])، قال ذلك خالد بن عبد الله وهو يهم بذبح الجعد أسفل منبر مسجد واسط عام 99 هـ، في صبيحة اليوم الأول من عيد الأضحى، وقد ذبح الجعد مع الأضاحي من الأغنام بعد صلاة العيد([18])، ويروي أصحاب الحديث المعادين للجعد، أن الجعد بن درهم قد اقتبس المقالة من يهودي من اليمن([19])، وابن منظور يحدّد بأنها عن بيان بن سمعان عن طالوت ابن أخت لبيد عن لبيد بن أعصم اليهودي([20]).

وقد أرجع أبو هاشم الجبائي أحد شيوخ الاعتزال في القرنين الثالث والرابع الهجري بداية القول بخلق القرآن إسلاميًا إلى أبي حنيفة النعمان([21]) وقوّى ذلك القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت413هـ).

حيث اعتبر أن الجدل في القرآن حدث في أيام أبي حنيفة، وأصحابه أنكروا ذلك عليه([22]). وناصَرَ المأمون العباسي وبعده المعتصم والواثق مقولة خلق القرآن، وعارض ذلك الإمام أحمد بن حنبل معارضة شديدة حتى سميت القضية تاريخيًا باسم "محنة القرآن أو محنة أحمد بن حنبل"، وقد كتب ابن سرور المقدسي (ت600هـ)، كتابًا خاصًا باسم "المحنة على إمام السنة أحمد بن حنبل"([23])، وغيرها من الكتب وبقيت المحنة إلى أن جاء المتوكل العباسي ونصر أصحاب الحديث وعلى رأسهم ابن حنبل، حتى أن المتوكل بعد سنة واحدة من هدمه قبر الإمام الحسين (عليه السلام) أي في سنة 237 هـ، أمر بتخلية كل من كان حبسه الواثق في خلق القرآن([24]).

وأمام هذا الصراع المريع ما بين القول بخلق القرآن وعدم القول بذلك وأمام تعصّب الحكام وتحيّزهم والخوض بدماء المسلمين وقف الإمام الهادي (عليه السلام) موقفًا وسطًا، حاسمًا بذلك المسألة ورافضًا القول بخلق القرآن أو قِدَمه، فكتب رسالة ويظهر أنها جواب على سؤال من بعض أتباعه ذاكرًا فيها "أن الجدل في القرآن بدعة، وعلى المسلمين أن يسمّوا القرآن بما سمّى به نفسه، فالقرآن كلام الله لا تجعل له اسمًا من عندك فتكون من الظالمين" ([25])، على حدّ تعبير الإمام (عليه السلام)، يقصد الإمام (عليه السلام) أن القرآن هو كلام الله وبالتالي لا خالق ولا مخلوق([26])، وهذا ليس استنتاجًا أو تأويلاً، بل هذا ما عبّر عنه الإمام زين العابدين من قبل، حيث قال بصريح العبارة حسب ما نقل عنه ابن الجوزي (ت597هـ):" القرآن هو كلام الله ليس بخالق ولا مخلوق"([27])، ومن هنا سنّ الإمام الهادي (عليه السلام) قاعدة في وصف الله تعالى، فقال: "إن الله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه"([28]).

وفي الختام أشير إلى أن الإمام الهادي (عليه السلام) قد تصدّى أيضًا لتأويل الغلاة للقرآن وطلب من أصحابه اعتزالهم([29])، ودافع عن القرآن وتأويل آياته، فذكر ابن شعبة الحراني في كتابه "تحف العقول" أن يحيى بن الأكثم القاضي المعتزلي المعروف، قد سأل موسى بن محمد أخا الإمام الهادي (عليه السلام) عن مسائل في

القرآن، وعجز موسى عن الإجابة عنها فذهب إلى أخيه الإمام الهادي (عليه السلام) مستفسرًا، فأجابه عنها الإمام (عليه السلام) ([30]).

ويظهر أن الإمام الحادي عشر، أي الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) قد تابع مسيرة والده الإمام الهادي (عليه السلام) في الدفاع عن القرآن.

فينقل ابن شهر آشوب العالم الشيعي الكبير في كتابه المناقب([31]) أن أبا القاسم الكوفي في كتابه "التبديل" ذكر أن يعقوب بن إسحاق الكندي (ت252 هـ)، فيلسوف العرب في زمانه، كان قد بدأ بتأليف كتاب في تناقض القرآن، ولكنه عاد وحرّقه نتيجة سؤال من الإمام أبي محمد الحسن العسكري أرسله إليه عن طريق أحد تلامذته (**).

وأخيرًا، أنهي كلامي برائعة للإمام الهادي (عليه السلام) تقول:

" من رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه"([32])، و"الحكمة لا تنجع في الطباع الفاسدة" ([33]).

(**) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية في النجف 1956، ج3 ص526، قال:

" أبو القاسم الكوفي في كتاب التبديل: أن إسحاق الكندي كان فيلسوف العراق في زمانه أخذ في تأليف تناقض القرآن، وشغل نفسه بذلك، وتفرد به في منزله، وإن بعض تلامذته دخل يومًا على الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) فقال له أبو محمد (عليه السلام): أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي عما أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟

فقال التلميذ: نحن من تلامذته كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟

فقال أبو محمد (عليه السلام): أتؤدي إليه ما ألقيه إليك؟ قال: نعم.

قال: فصر إليه، وتلطّف في مؤانسته ومعونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الانسة في ذلك فقل: قد حضرتني مسألة أسالك عنها فإنه يستدعي ذلك منك، فقل له: إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم به منه غير المعاني التي قد ظننتها أنك ذهبت إليها؟ فإنه سيقول لك: إنه من الجائز لأنه رجل يفهم إذا سمع، فإذا أوجب ذلك فقل له: فما يدريك لعله قد أراد غير الذي ذهبت أنت إليه، فتكون واضعًا لغير معانيه.

فصار الرجل إلى الكندي وتلطّف إلى أن ألقى عليه هذه المسألة، فقال له: أعد عليَّ! فأعاد عليه، فتفكّر في نفسه، ورأى ذلك محتملاً في اللغة، وسائغا في النظر، فقال: أقسمت عليك إلا أخبرتني من أين لك؟

فقال: انه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك.

فقال: كلا، ما مثلك من اهتدى إلى هذا ولا من بلغ هذه المنزلة فعرِّفني من أين لك هذا؟

فقال: أمرني به أبو محمد.

فقال: الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت، ثم إنه دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألَّفه ".

انتهى

---

[1] - بما أن كنية الإمامين موسى الكاظم (عليه السلام) والرضا (عليه السلام) أبا الحسن أيضًا، فلذا يقال للإمام الهادي أبو الحسن الثالث، كما يقال للإمام الرضا أبو الحسن الثاني، وربما قيل مكان الثالث الماضي أو الهادي أو العسكري. انظر: القمي، منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، لا طبعة، لا سنة، 1/591.

[2] - م، ن: 1/591-592.

[3] - م،ن 1/631.

[4] - عاش مدة في بقية ملك المعتصم ثم مع الواثق خمس سنين وتسعة أشهر، ثم مع المتوكل أربعة عشر سنة، ثم مع ابنه المنتصر ستة أشهر، ثم مع المستعين ابن أخ المتوكل ثلاث سنين وتسعة أشهر، ثم مع المعتز، وقد استشهد الإمام الهادي في آخر ملكه مسمومًا. راجع: ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة.

[5] - وهم مصعب الزبيري، وإسحاق ابن أبي إسرائيل، وإبراهيم بن عبد الله الهروي، وعبد الله وعثمان ابن محمد بن أبي شيبة. انظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، ط 1، لا سنة، 11/207 في حوادث سنة 234هـ.

[6] - م، ن.

[7] - م، ن: 11/179.

[8] - ابن الجوزي، المنتظم... 11/237 حوادث سنة 236، وأول من أمر بإعادة بناء مشهد الإمام الحسين (عليه السلام) المعتمد العباسي (ت 237 هـ). راجع: آدم متز، الحضارة الإسلامية 1/140.

[9] - الصدوق: علل الشرائع وغيره من المصادر.

[10]- م، ن، وراجع: آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، دار الكتاب العربي، لبنان، ط4، سنة 1967، 1/138.

[11]- ابن الجوزي: المنتظم: 1/250، حوادث سنة 237.

[12]- الدكتور فنح الله المحمدي، سلامة القرآن من التحريف، أو تفنيد الافتراءات على الشيعة الإمامية، دار مشعر، إيران، ط1، سنة 1424هـ، من ص 158 حتى صفحة 223، وقد عالج هذه المسألة العديد من المؤلفين.

[13]- الشيخ سالم الصفار، نقد منهج التفسير والمفسرين المقارن، دار الهادي، لبنان لاط، لا س، ص326.

[14]- ابن شعبة الحراني، تحف العقول عن آل الرسول (ص)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط2 1404هـ، وطبعة الأعلمي للمطبوعات، لبنان ط6 سنة 1996، ص337.

[15]- د. المحمدي: سلامة القرآن من التحريف، ص225 وما بعدها.

[16]- قد أخطأ الشيخ سالم الصفار في كتابه نقد منهج التفسير والمفسرين المقارن ص326 عندما اعتبر أن أحمد بن أبي داوود هو من أتباع هذه المسألة.

[17]- النساء، من الآية 163.

[18]- ابن منظور، مختصر تاريخ ابن عساكر، تحقيق مأمون الصاخرجي، دار الفكر، لبنان، 3ط1، ر سنة، 6/51، وابن النديم الفهرست ص1401.

[19]- ابن كثير، البداية والنهاية: 9/364.

[20]- ابن منظور، مختصر تاريخ ابن عساكر: 6/51.

[21]- القاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيّد، الدجار التونسية، ص157.

[22]- م.ن، ص157، وراجع حول المسألة: كتاب جدل التنزيل، د. رشيد الخيون وكتاب خلق القرآن للجاحظ، منشورات الجمل لندن، ط1 سنة 2000، ص105-106.

[23]- ابن سرور المقدسي: المحنة على إمام السنّة أحمد ابن حنبل، دار الكتب العلمية، لبنان ط1 سنة 2000.

[24]- ابن الجوزي، المنتظم... 11/251 حوادث سنة 237.

[25]- ونص رسالة الإمام الهادي هي: بسم الله الرحمن الرحيم: عصمنا الله وإياك من الفتنة، فإن يفعل فأعظم بها نعمة! وإلا يفعل فهي الهلكة، نحن نرى أن الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فتعاطى السائل ما ليس له، وتكلّف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلا الله، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، لا تجعل له اسمًا من عندك فتكون من الضالين، جعلنا الله وإياك من الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون. راجع: متشابه القرآن ومختلفه ص61.

[26]- احتلت مسألة خلق القرآن حيّزًا واسعًا في تاريخ الفكر الإسلامي، ولتفصيل الكلام فيها ومعرفة المراد من قول الإمام (عليه السلام) "القرآن لا خالق ولا مخلوق" يراجع على سبيل المثال لا الحصر: مقدمة شرح الأسماء الحسنى، الملا هادي السبزواري. هل القرآن كلام الله مخلوق؟... مركز المصطفى. موسوعة المصطفى والعترة، الحاج حسين الشاكري، ج9 ص594 وما بعدها. وفلاسفة الشيعة للشيخ عبد الله نعمة. (التحرير)

[27]- ابن الجوزي: فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، تقديم أحمد الشرقاوي، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، لاط، سنة 1970، ص25، واللافت أنّ د. رشيد الخيون قد استبعد ورود هذا الحديث: جدل التنزيل، د. رشيد الخيون، ص356.

[28]- ابن شعبة: تحف العقول، 356.

[29]- الكشي: رجاله ص568.

[30]- ابن شعبة الحراني: تحف العقول، ص351 وما بعدها.

[31]- ابن شهر آشوب: المناقب 4/242 وردت أيضًا في بحار الأنوار 50/311.

[32]- الشيخ عباس القمي: منتهى الآمال 2/113.

[33]- م.ن، 2/616.

قبسات من نور الإمام الهادي (ع)

الشيخ نعيم نعمة

الشيخ نعيم نعمة

مقدمة

بعد وفاة الرسول الأكرم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) انقلب الناس على أهل بيته (عليهم السلام)، وغصبوهم المقام الذي جعله الله لهم، وأقصوهم عن حقهم، وعلّلوا ذلك في حينه بأنهم إنما فعلوا ما فعلوا كراهة أن تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد من العرب([1]).

ثم انبرى بعد ذلك من جاء من أتباعهم وحاول أن يبرّر لهم فعلتهم تلك، وأن يصطنع الأدلة والبراهين والحجج على شرعية ما قام به القوم في تلك المرحلة، متذرعين بالنص تارة وبالشورى أخرى، بالرغم مما ورد عن عمر بن الخطاب في معرض تقييمه لبيعة أبي بكر بقوله: إن بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرَّها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه([2]).

وتعاقب الغاصبون الأدوار وتلاقفوا الخلافة بينهم وتصارعوا عليها، فانتقلت من بني تيم وعدي إلى بني أمية بدءًا ببيت أبي سفيان، ثم بيت مروان بن الحكم إلى أن غلبهم عليها بنو العباس بن عبد المطلب.

ولئن اختلفت أنساب هؤلاء وأسماؤهم إلا أن أفعالهم كلها كانت تنبع من المعين ذاته، وتنحو نحو هدف واحد، وتصبّ في جهة واحدة، هو محاصرة أهل البيت (عليهم السلام) والتضييق عليهم، وصولاً إلى إلغاء دورهم في المجتمع وطمس آثارهم، بل وحتى اغتيالهم.

وسيرة الإمام علي بن محمد الهادي (عليه السلام) تعتبر نموذجًا لما كان يرتكبه أعداء أهل البيت في حقهم، وتعبّر عن تلك المرحلة التاريخية الصعبة التي عاشها.

من هو الإمام الهادي (ع)؟

الهادي هو لقب الإمام العاشر علي بن الإمام محمد الجواد(عليهما السلام)، وكان يطلق عليه أيضًا وعلى ابنه الإمام الحادي عشر الحسن بن علي (عليه السلام) لقب العسكري، لأنهما سكنا مدينة سامراء، بل إن هذا اللقب كان يطلق على كل من يسكن في مدينة سامراء، إذ كانت هذه المدينة في تلك المرحلة مدينة للعسكر وأشبه بثكنة عسكرية.

وقد نسب السمعاني جماعة إلى عسكر سامراء ومنهم الإمام الهادي (عليه السلام)، حيث قال: فمن عسكر سامراء أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن موسى ين جعفر العلوي المعروف بالعسكري من عسكر سر من رأى، أشخصه جعفر المتوكل من مدينة رسول الله إلى بغداد ثم إلى سر من رأى، فقدِمها وأقام بها عشرين سنة وتسعة أشهر([3]).

ويقول العلوي في كتابه المجدي في أنساب الطالبين: وإنما سُمّي العسكري، لأن سامراء كانت تُسمى مدينة العسكر، وأقام هو وابنه (عليهما السلام) بها ([4]).

وقال السيد إبراهيم الزنجاني في كتابه حياة الإمام العسكري (عليه السلام): ومن الجدير بالذكر أن هذا اللقب إذا أطلق فإنه ينصرف إلى الإمام الحسن لا إلى أبيه حسب ما نص عليه بعض المؤرخين([5]).

ولد الإمام علي الهادي (عليه السلام) في بلدة صُريا في المدينة المنورة، وهي قرية أسسها الإمام موسى بن جعفر الكاظم (عليه السلام) على مسافة ثلاثة أميال من المدينة([6]).

وقد اختلف في سنة ولادته على قولين، فقال الكليني في الكافي([7]) والشيخ المفيد في الإرشاد([8]) والإربلي في كشف الغمة([9]) والطبرسي في أعلام الورى([10]) والنيسابوري في روضة الواعظين([11]) وغيرهم أنه ولد في سنة 212هـ.

وقال ابن الصباغ المالكي ([12])وسبط ابن الجوزي([13]) والبغدادي([14]) وغيرهم أنه ولد في سنة 214هـ.

واختلف أيضًا في شهر ولادته على قولين:

قول بأنه ولد في شهر رجب، واستدل العلامة المجلسي عليه بالدعاء الوارد في أعمال شهر رجب: "اللهم إني أسألك بالمولودَين في رجب محمد بن علي الثاني وابنه علي بن محمد المنتجب"([15]).

وهناك قول آخر بأنه ولد في ذي الحجة وذهب إليه ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب([16]).

سبب انتقال الإمام الهادي (ع) إلى سامراء([17])

كان الإمام الهادي (عليه السلام) يسكن المدينة المنورة إلى سنة 236 هجرية، وكان معظمًا فيها ومكرمًا، تهوي إليه قلوب المؤمنين العاشقين، حتى حسده بريحة - وكان من مقدمي الأتراك الذين قربهم الخلفاء وجعلوه إمام الحرب والمحراب في مدينة الرسول- على مكانته ومقامه الرفيع، وبما أن المتوكل العباسي كان معروفًا بالحقد على أهل البيت (عليهم السلام) فكتب إليه بريحة: إن كان لك في الحرمين حاجة فأخرج علي بن محمد منهما فإنه قد دعا الناس إلى نفسه واتّبعه خلق كثير وتابع إليه.

فوجّه المتوكل بيحيى بن هرثمة وكتب معه إلى أبي الحسن (عليه السلام) كتابًا جميلاً يعرِّفه أنه قد اشتاقه وسأله القدوم عليه، وأمر يحيى بالمسير إليه، وكتب في نفس الوقت إلى بريحة يعرّفه ذلك، فقدم يحيى بن هرثمة المدينة وبدأ ببريحة وأوصل الكتاب إليه، ثم ركبا جميعا إلى أبي الحسن (عليه السلام) وأوصلا إليه كتاب المتوكل فاستأجلهما ثلاثة أيام، فلما كان بعد ثلاث عادا إلى داره فوجدا الدواب مسرجة والأثقال مشدودة قد فرغ منها، فخرج (عليه السلام) متوجهًا نحو العراق ومعه يحيى بن هرثمة([18]).

موقف أهل المدينة من إخراج الإمام الهادي (ع) منها

كان أهل المدينة يلتفون حول الإمام الهادي (عليه السلام) ويرون فيه استمرارًا لآل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وكانوا يخشون عليه من المتوكل، ولذلك ضجّ أهل المدينة لما وصل هرثمة بن يحيى إلى المدينة المنوّرة وشاع الخبر أنه يريد انتزاع الإمام من بين أظهرهم وإشخاصه إلى المتوكل، فخافوا على حياة الإمام. وحاولوا منع هرثمة من إخراج الإمام الهادي (عليه السلام).

قال سبط بن الجوزي: قال يحيى فذهبت إلى المدينة، فلما دخلتها ضجَّ أهلها ضجيجًا عظيمًا ما سمع الناس بمثله خوفًا على علي وقامت الدنيا على ساق، لأنه كان محسناً إليهم ملازمًا للمسجد، ولم يكن عنده ميل إلى الدنيا، قال يحيى: فجعلت أسكتهم وأحلف لهم أني لم أؤمر فيه بمكروه، وأنه لا بأس عليه، ثم فتشت منزله فلم أجد فيه إلا مصاحف وأدعية وكتب العلم، فعظم في عيني، وتوليت خدمته بنفسي وأحسنت عشرته ([19]).

حلم الإمام الهادي (ع) وسعة صدره

تقدم الكلام أن بريحة العباسي كان هو السبب في استدعاء المتوكل للإمام الهادي من المدينة، وكأنه بعد إخراج الإمام (عليه السلام) من المدينة خاف أن ينكشف كذبه وافتراؤه عليه،لذلك اقترب من الإمام الهادي (عليه السلام) في الطريق وقال له: قد علمتُ وقوفَك على أني كنت السبب في حملك، وعليّ حلف بإيمان مغلّظة لئن شكوتني إلى أمير المؤمنين أو إلى أحد من خاصته، لأجمرن نخلك، ولأقتلن مواليك، ولأغورن عيون ضيعتك ولأفعلن ولأصنعن.

فالتفت إليه أبو الحسن (عليه السلام) وقال له: إن أقربَ عَرضي إياك على الله البارحة وما كنت لأعرضك عليه ثم لأشكونك إلى غيره من خلقه.

فانكبّ عليه بريحة وضرع إليه واستعفاه فقال له: قد عفوت عنك([20]).

كرامة الإمام الهادي (ع) عند خروجه من المدينة

جعل الله لأنبيائه معجزات تدل على صدقهم وتؤيد دعوتهم وتلقي الحجة على خصومهم، وأوصياء الأنبياء ليسوا بعيدين عن هذا التأييد الإلهي فقد جعل لهم كرامات تدل على قربهم من الله وتربط قلوب المؤمنين بالله.

والأئمة (عليهم السلام) هم من أهل الكرامات الإلهية، ولكنهم كانوا يظهرونها في المواقف التي تستدعي نصرة الدين ودفع الباطل، وإليك نموذجًا من هذه الكرامات على يد إمامنا الهادي (عليه السلام):

يقول يحيى بن هرثمة دعاني المتوكل وقال: اختر ثلاثمائة ممن تريد واخرجوا إلى الكوفة، وخلّفوا أثقالكم فيها، واخرجوا على طريق البادية إلى المدينة، وأحضروا علي بن محمد النقي إلى عندي مكرمًا معظمًا مبجلاً.

قال: فقمت وخرجنا، وكان في أصحابي قائد من الشراة ([21])، وكان لي كاتب متشيع، وأنا على مذهب الحشوية، وكان ذلك الشاري يناظر الكاتب، وكنت أسمع إلى مناظرتهما لقطع الطريق. فلما صرنا وسط الطريق قال الشاري للكاتب: أليس من قول صاحبكم علي بن أبي طالب "ليس في الأرض بقعة إلا وهي قبر، أو سيكون قبرًا"؟ فانظر إلى هذه البرية أين من يموت فيها حتى يملأها الله قبورًا كما تزعمون؟

قال: فقلت للكاتب: أهذا من قولكم؟ قال: نعم.

قلت: صدق، أين من يموت في هذه البرية العظيمة حتى تمتلئ قبورًا؟

وتضاحكنا ساعة إذ انخذل الكاتب في أيدينا، قال: وسرنا حتى دخلنا المدينة، فقصدت بيت أبي الحسن علي بن محمد بن الرضا، فدخلت عليه فقرأ كتاب المتوكل فقال: انزلوا، وليس من جهتي خلاف.

قال: فلما حضرت إليه من الغد، وكنّا في تموز أشد ما يكون من الحرّ، فإذا بين يديه خياط وهو يقطع من ثياب غلاظ - خفاتين([22]) - له ولغلمانه، ثم قال للخياط: إجمع عليها جماعة من الخياطين، واعمد على الفراغ منها يومك هذا وبكر بها إلي في هذا الوقت.

ثم نظر إليّ وقال: يا يحيى، اقضوا وطركم من المدينة في هذا اليوم، واعمل على الرحيل غدًا في هذا الوقت.

قال: فخرجنا وإنما بيننا وبين العراق مسيرة عشرة أيام، فما يصنع بهذه الثياب؟! ثم قلت في نفسي: هذا رجل لم يسافر، وهو يقدِّر ويظن أن كل سفر يحتاج فيه إلى هذه الثياب، والعجب من الرافضة حيث يقولون بإمامة هذا مع فهمه هذا.

فعدت إليه في الغد في ذلك الوقت، فإذا الثياب قد أحضرت، فقال لغلمانه: ادخلوا، وخذوا لنا معكم لبابيد وبرانس، ثم قال: ارحل يا يحيى.

فقلت في نفسي: هذا أعجب من الأول، أيخاف أن يلحقنا الشتاء في الطريق حتى يأخذ معه اللبابيد والبرانس.

فخرجت وأنا أستصغر فهمه حتى إذا وصلنا إلى مواضع المناظرة في القبور ارتفعت سحابة، واسودت وأرعدت وأبرقت حتى إذا صارت على رؤوسنا أرسلت بردا مثل الصخور، وقد شدّ على نفسه وغلمانه الخفاتين، ولبسوا اللبابيد والبرانس وقال لغلمانه: ارفعوا إلى يحيى لبادة، وإلى الكاتب برنسًا.

وتجمعنا والبرد يأخذنا حتى قتل من أصحابي ثمانون رجلاً، وزالت، ورجع الحر كما كان.

فقال لي: يا يحيى، أنزل من بقي من أصحابك ليدفن من مات، فهكذا يملأ الله هذه البرية قبورًا.

قال: فرميت نفسي عن الدابة واعتذرت إليه، وقبلت ركابه ورجله، وقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأنكم خلفاء الله في أرضه، وقد كنت كافرًا، وإني الآن أسلمت على يديك يا مولاي. قال: فتشيعت، ولزمت خدمته إلى أن مضى ([23]).

موقف المتوكل من الإمام الهادي (ع)

لم تكن دعوة المتوكل للإمام الهادي للحضور إلى سامراء بريئة، وسرعان ما تكشفت أوراقه وظهر خبثه، فما أن وصل الإمام الهادي (عليه السلام) إلى سامراء حتى احتجب المتوكل عنه، ولم يعين في يومه دارًا لنزوله حتى اضطر الإمام إلى النزول في خان الصعاليك وهو محل نزول الفقراء الغرباء، بقصد إذلال الإمام وإظهاره أمام الناس أنه لا يليق بأن يكون ضيفًا في قصر الخليفة.

يقول صالح بن سعيد: دخلت على أبي الحسن (عليه السلام) يوم وروده بسر من رأى فقلت له: جعلت فداك في كل الأمور أرادوا إطفاء نورك حتى أنزلوك هذا الخان الأشنع، خان الصعاليك؟

فقال: ههنا أنت يا ابن سعيد؟

ثم أومأ بيده وقال: انظر، فنظرت، فإذا أنا بروضات آنقات وروضات باسرات، فيهن خيرات عطرات وولدان كأنهن اللؤلؤ المكنون وأطيار وظباء وأنهار تفور، فحار بصري وحسرت عيني، فقال: حيث كنا فهذا لنا عتيد، لسنا في خان الصعاليك([24]).

ثم افرد المتوكل بعدئذ دارًا للإمام (عليه السلام) فانتقل إليها، وأجبره المتوكل على الإقامة في سامراء ومنعه من الرجوع إلى المدينة، وكذلك فعل من جاء بعده فبقي فيها عشرين سنة إلى حين وفاته.

يتبع =

---

[1] - نهج الإيمان، ابن جبر، دار ستارة - قم المقدسة، الطبعة الأولى 1418هـ، ص465.

[2] - مسند أحمد، دار صادر، بيروت - لبنان، ج1 ص55.

[3] - الأنساب، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، دار الجنان، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1408هـ، ج9 ص303.

[4] - المجدي في أنساب الطالبيين، على بن محمد العلوي، مكتبة سيد الشهداء (ع)، قم المقدسة، الطبعة الأولى 1409هـ، ص 130.

[5] - حياة الإمام العسكري، السيد إبراهيم الزنجاني، دار الأضواء، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1988، ص 20.

[6] - مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، طبعة سنة 1376هـ، ج4 ص401.

[7] - الكافي، الكليني، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثالثة 1388هـ، ج1 ص497.

[8] - الإرشاد، الشيخ المفيد، دار المفيد، تحقيق مؤسسة أهل البيت لتحقيق التراث، ص307.

[9] - كشف الغمة، الإربلي، دار الأضواء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية 1985، ج2 ص375.

[10] - إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ أبي علي الطبرسي، مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، قم المشرفة، الطبعة الأولى 1417هـ، ص339.

[11] - روضة الواعظين، للفتال النيسابوري، منشورات الرضا، قم المقدسة، ج1 ص246.

[12] - الفصول المهمة، ابن الصباغ المالكي، دار الحديث، قم المقدسة، الطبعة الأولى 1422هـ، ص259.

[13] - تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي، مؤسسة أهل البيت، بيروت - لبنان، طبعة سنة 1401هـ، ص323.

[14] - تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1417هـ، ج12 ص57.

[15] - بحار الأنوار، المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية 1983، ج50 ص14.

[16] - مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، طبعة سنة 1376هـ، ج4 ص401.

[17] - تعددت الأقوال في معنى كلمة سامراء، وفي أصل تسميتها، وفي تحديد أول من بناها، فذهب بعضهم إلى أن أصل الكلمة عربي وهو (سُرَّ من رأى)، وقد سماها به المعتصم عندما بناها وجعلها مدينة للعسكر، فلما خربت فيما بعد سُميت (ساء من رأى)، ثم ثقل هذا الاسم على الناس فغيروه إلى عكسه، فحذفوا الهمزة من ساء ومن

رأى فصار (سا من رى)، ثم قالوا (سامرى)، ومن قال (سامراء) أخّر همزة رأى وجعلها بعد الألف فصارت (سا من رأى) ثم أدغمت النون في الراء فصارت (سامراء)، راجع: لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1405هـ، ج14 ص303.

وقيل أنها مدينة بنيت لسام بن نوح في الألف الخامس قبل الميلاد فنسبت إليه بالفارسية، فقيل (سام راه أي) طريق سام، وقيل بل إن أصلها بالفارسية (ساء مره أي)، ومعناها موضع الخراج والإتاوة التي كان يقبضها الفرس من الروم في هذا المكان. راجع: معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ج3 ص173.

[18] - بحار الأنوار، المجلسي، ج50 ص209.

[19] - تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي، ص322.

[20] - أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، دار التعارف، بيروت - لبنان، طبعة سنة 1986، ج2 ص38.

[21] - الشراة: الخوارج " مجمع البحرين - شرا - ج1 ص245.

[22] - الخفاتين: جمع خفتان وهو الدرع من اللبد.

[23] - الثاقب في المناقب، ابن حمزة الطوسي، مطبعة الصدر، قم المقدسة، الطبعة الثانية 1412هـ، ص551.

[24] - مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج4 ص411؛ وشرح أصول الكافي - مولى محمد صالح المازندراني، ج 7 ص 298.

تتمة مقال = قبسات من نور الإمام الهادي (ع)

علم الإمام الهادي (ع) واحتجاجه على خصومه

وبالرغم من ظهور كرامات الإمام الهادي (عليه السلام) لم يتوقف المتوكل عن تكرار محاولات إحراج الإمام (عليه السلام) لذلك طلب من العالم الكبير يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت أن يمتحن الإمام (عليه السلام) بمسائل غامضة معقدة، لعله لا يهتدي لجوابها، فيتخذها وسيلة للتشهير به (عليه السلام) والحط من شأنه، ولكن لم يتم له ما أراد، فقد فوت الإمام بعلمه الذي لا يحد ومعرفته التي لا تحاط، على المتوكل الفرصة للنيل منه، فقد أملى الإمام (عليه السلام) على ابن السكيت أجوبة تلك المسائل الدقيقة بمجرد النظر إليها، فدلل بذلك على طاقاته العلمية الهائلة التي هي إحدى العناصر البارزة في معالم شخصية الإمام العظيمة.

يقول ابن شهرآشوب: قال المتوكل لابن السكيت: اسأل ابن الرضا مسألة عوصاء بحضرتي، فسأله فقال: لم بعث الله موسى (عليه السلام) بالعصا، وبعث عيسى (عليه السلام) بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وبعث محمدا (صلى الله عليه وآله) بالقرآن والسيف؟

فقال أبو الحسن (عليه السلام): بعث الله موسى (عليه السلام) بالعصا واليد البيضاء في زمانٍ الغالب على أهله السحر، فأتاهم من ذلك ما قهر سحرهم وبهرهم وأثبت الحجة عليهم، وبعث عيسى (عليه السلام) بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله في زمانٍ الغالب على أهله الطب، فأتاهم من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله فقهرهم وبهرهم، وبعث محمدا (صلى الله عليه وآله) بالقرآن والسيف في زمانٍ الغالب على أهله السيف والشعر، فأتاهم من القرآن الزاهر والسيف القاهر ما بهر به شعرهم، وقهر سيفهم، وأثبت الحجة عليهم.

فقال ابن السكيت: فما الحجة الآن؟ قال: العقل، يعرف به الكاذب على الله فيكذب.

فقال يحيى بن أكثم: ما لابن السكيت ومناظراته، وإنما هو صاحب نحو وشعر ولغة([25]).

من مواقف الإمام (ع) مع طاغية زمانه

كان الإمام الهادي (عليه السلام) يتجنب التعاطي مع حكام الجور عملاً بسيرة آبائه، وكان إذا أحوجته الظروف للقاء هؤلاء الطغاة يستغل هذا اللقاء من أجل وعظهم وإلقاء الحجة عليهم.

يروى أنه سُعي إلى المتوكل بالإمام علي الهادي (عليه السلام) أن في منزله كتبًا وسلاحًا من شيعته من أهل قم وانه عازم على الوثوب بالدولة فبعث إليه جماعة من الأتراك فهجموا على داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئًا ووجدوه في بيت مغلق عليه، وهو جالس على الرمل والحصا وعليه مدرعة من صوف، متوجه إلى الله تعالى بالصلاة وتلاوة القرآن.

فحُمل على حاله تلك إلى المتوكل وقالوا له: لم نجد في بيته شيئًا ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة.

وكان المتوكل في مجلس الشرب فأُدخل عليه الإمام الهادي (عليه السلام) والكأس في يد المتوكل، فلما رآه هابه وعظّمه وأجلسه إلى جانبه وناوله الكأس التي كانت في يده.

فقال (عليه السلام): والله ما يخامر لحمي ودمي قط فأعفني فأعفاه، فقال أنشدني شعرًا.

فقال (عليه السلام): إني قليل الرواية للشعر فقال: لا بد، فأنشده (عليه السلام) وهو جالس عنده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم	غُلبُ الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم	وأسكنوا حفرًا يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخٌ من بعد دفنهم	أين الأساور والتيجان والحلل؟
أين الوجوه التي كانت منعمة	من دونها تضرب الأستار والكلل؟
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهرًا وقد شربوا	فأصبحوا اليوم بعد الأكل قد أكلوا
وطالما عمَّروا دوراً لتحصنهم	ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادَّخروا	ففرقوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفرًا معطلة	وساكنوها إلى الأجداث قد نزلوا

فبكى المتوكل حتى بلّت لحيتَه دموعُ عينيه وبكى الحاضرون ودفع إلى علي (عليه السلام) أربعة آلاف دينار ثم رده إلى منزله مكرما([26]).

سِمَة عصر الإمام الهادي (ع)

يلاحظ المتتبع لتلك الفترة الزمنية أن الأئمة كانوا يبتعدون تدريجيًا عن الناس بسبب التضييق الذي كان يمارسه الحكّام من جهة، ومن جهة أخرى لعله كان هناك سبب آخر هو أن الأئمة كانوا يُعدون الأمة لتقبل فكرة غيبة الإمام الثاني عشر (عجل الله فرجه)، فنجد في تلك الفترة أن المراسلات كثرت بين الأئمة والموالين بل لعلها كانت الوسيلة الوحيدة في بعض الأوقات.

وقد ابتلي الإمام الهادي (عليه السلام) في عصره بأصحاب البدع والانحرافات الفكرية، وظهرت مذاهب كثيرة مخترعة وأرست قواعدها في ظل تلك الحكومات الجائرة، فاستفادوا من دعم السلطان لنشر عقائدهم الفاسدة، ومن جملة هذه التيارات ظاهرتي الغلو والوقف.

ومما لا شك فيه أن الأئمة (عليهم السلام) كانوا يحرصون بكل ما لديهم من قوة وبيان على أن يجعلوا من أصحابهم وشيعتهم ومن يتصل بهم دعاة حق وخير، وأن يمثلوا الإسلام ويجسدوا تعاليمه بأفعالهم قبل أقوالهم، كما كانوا يحرصون على تنزيه تعاليم الإسلام من التشويه والتحريف والافتراء، لذا كانوا يؤكدون لهم أنهم عبيد الله لا يقدرون أن يدفعوا عن أنفسهم ضرًا، ولا أن يجلبوا لها خيرًا إلا بمشيئة الله.

وقد تعرضوا في حياتهم لظلم الحكام واضطهادهم، ولكل ما يمكن أن يتعرض له أي إنسان من البلاء وأنواع التقلبات، وعاشوا مع الناس كغيرهم من الناس، ولعنوا من قال فيهم ما لم يقولوه في أنفسهم، ومن نسب إليهم علم الغيب والخلق والرزق وكل ما هو من خصائص الخالق وصفاته.

ومع ذلك فقد أضاف إليهم بعض المحبين والمبغضين ما ليس بهم، وأظهر الغلو فيهم أناس عن سوء نية، ولكنهم وقفوا للجميع بالمرصاد، فلعنوا المغالين وتبرأوا منهم، وأعلنوا للناس ضلالهم وجحودهم، وأمروا محبيهم بالاعتدال، ومبغضيهم بالرجوع إلى وصايا نبيهم (صلى الله عليه وآله) في أهل بيته وعترته (عليهم السلام)، وخرجوا من هذه الدنيا وهم من أنصح خلق الله لخلقه، وأحرصهم على دينه وشريعته، وأصبرهم على بلائه، وأخوفهم من سخطه وعقابه ([27]).

ومن جملة الفتن التي أخذت دورًا أساسيًا في عصر الإمام الهادي (عليه السلام) وشغلت الكثير من المسلمين هي مسألة خلق القرآن الكريم، بحيث فقدت مكانتها بين المتكلمين واستغلها الحكّام لقمع من خالفهم بحجة الانحراف، وممن ابتلي بذلك إمام مذهب الحنابلة أحمد بن حنبل الذي امتحنه المعتصم في هذه المسألة وأمر بضربه سياطًا إلى أن أقرّ بخلق القرآن الكريم([28]).

لذلك وجه الإمام الهادي (عليه السلام) رسالة إلى بعض شيعته في بغداد يعالج فيها هذه المسألة وهذا نصها كما في أمالي الصدوق:

عن محمد بن عيسى بن عبيد اليقطيني، قال: كتب علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا (عليهم السلام) إلى بعض شيعته ببغداد:

بسم الله الرحمن الرحيم

عصمنا الله وإياك من الفتنة، فإن يفعل فأعظم بها نعمة! وإلا يفعل فهي الهلكة، نحن نرى أن الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فتعاطى السائل ما ليس له، وتكلّف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلا الله، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، لا تجعل له اسمًا من عندك فتكون من الضالين، جعلنا الله وإياك من الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ([29]).

موقف الإمام الهادي (ع) من الصوفية

من جملة الفرق الضالة التي ظهرت في القرن الثاني وأخذت تغري الناس بسبب زهدها الكاذب هي الصوفية، فحذّر الإمام (عليه السلام) أصحابه وسائر المسلمين من الاتصال بالصوفية والاختلاط بهم، كما دل على زيفهم بإظهار التقشف والزهد لإغراء عامة الناس وبسطائهم وغوايتهم، ووصفهم بأنهم حلفاء الشياطين في خداع الناس، وأن زهدهم لم يكن حقيقيًا وإنما لإراحة أبدانهم، وأن تهجدهم في الليل لم يكن نسكًا وإخلاصا في طاعة الله تعالى، وإنما هو وسيلة لصيد أموال الناس وإغوائهم، وأن أورادهم ليست عبادة خالصة لله بل هي رقص وغناء، وأن الذي يتبعهم الحمقى والسفهاء.

فقد روى الحسين بن أبي الخطاب، قال: كنت مع أبي الحسن الهادي (عليه السلام) في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) فأتاه جماعة من أصحابه منهم أبو هاشم الجعفري، وكان بليغًا وله منزلة مرموقة عند الإمام (عليه السلام)، وبينما نحن وقوف إذ دخل جماعة من الصوفية المسجد فجلسوا في جانب منه، وأخذوا بالتهليل، فالتفت الإمام (عليه السلام) إلى أصحابه وقال لهم: لا تلتفتوا إلى هؤلاء الخداعين، فإنهم حلفاء الشياطين، ومخربو قواعد الدين، يتزهدون لإراحة الأجسام، ويتهجدون لصيد الأنعام، يتجوعون عمرًا حتى يديخوا للإيكاف ([30]) حمرًا، لا يهللون إلا لغرور الناس، ولا يقللون الغذاء إلا لملأ العساس([31]) واختلاف قلب الدفناس ([32])، يتكلمون (يكلِّمون) الناس بإملائهم في الحب، ويطرحونهم بإدلائهم في الجب، أورادهم الرقص والتصدية، وأذكارهم الترنم والتغنية، فلا يتبعهم إلا السفهاء، ولا يعتقد بهم إلا الحمقى، فمن ذهب إلى زيارة أحدهم حيًا أو ميتًا، فكأنما ذهب إلى زيارة الشيطان وعبادة الأوثان، ومن أعان واحدًا منهم فكأنما أعان معاوية ويزيد وأبا سفيان.

فقال له رجل من أصحابه: وإن كان معترفًا بحقوقكم؟

قال: فنظر إليه شبه المغضب وقال: دع ذا عنك، من اعترف بحقوقنا لم يذهب في عقوقنا، أما تدري أنهم أخس طوائف الصوفية؟ والصوفية كلهم من مخالفينا، وطريقتهم مغايرة لطريقتنا، وإن هم إلا نصارى ومجوس هذه الأمة، أولئك الذين يجتهدون في إطفاء نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون([33]).

ميزان الإمام (ع) في تكريم الناس

كان الإمام الهادي (عليه السلام) يحثّ شيعته على التصدي لنصرة الحق من خلال الحوار الهادئ والحجج الدامغة، وكان مقياسه في تكريم الناس هو مقدار علمهم وإنجازاتهم التي تشيد معالم هذا الدين وتدفع عنه الشبهات والفتن، لذلك يروي الطبرسي عن الإمام الحسن العسكري (عليه السلام) أنه قال: اتصل بأبي الحسن علي بن محمد العسكري (عليه السلام) أن رجلاً من فقهاء شيعته كلَّم بعض النصَّاب، فأفحمه بحجته حتى أبان عن فضيحته، فدخل إلى علي بن محمد (عليه السلام) وفي صدر مجلسه دست عظيم منصوب، وهو قاعد خارج الدست، وبحضرته خلق من العلويين وبني هاشم، فما زال يرفعه حتى أجلسه في ذلك الدست، وأقبل عليه، فاشتد ذلك على أولئك الأشراف، فأما العلويون فأجلّوه عن العتاب، وأما الهاشميون فقال له شيخهم: يا بن رسول الله، هكذا تُؤثر عاميًا على سادات بني هاشم من الطالبيين والعباسيين؟!

فقال (عليه السلام): إياكم أن تكونوا من الذين قال الله تعالى فيهم: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ}**([34])، أترضون بكتاب الله حكمًا؟ قالوا: بلى.

قال: أليس الله يقول: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** ([35])، فلم يرضَ للعالم المؤمن إلا أن يرفع على المؤمن غير العالم، كما لم يرضَ للمؤمن إلا أن يرفع على من ليس بمؤمن، أخبروني عنه قال: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** أو قال: " يرفع الذين أوتوا شرف النسب درجات "؟ أو ليس قال الله: **{هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}**([36])، فكيف تنكرون رفعي لهذا لما رفعه الله؟! إن كسر هذا لفلان الناصب بحجج الله التي علّمه إياها، لأفضل له من كل شرف في النسب.

فقال العباسي: يا بن رسول الله، قد أشرفت علينا، هو ذا تقصير بنا عمن ليس له نسب كنسبنا، وما زال منذ أول الإسلام يُقدم الأفضل في الشرف على من دونه فيه.

فقال (عليه السلام): سبحان الله! أليس العباس بايع أبا بكر وهو تيمي، والعباس هاشمي؟ أو ليس عبد الله بن عباس كان يخدم عمر بن الخطاب، وهو هاشمي أبو الخلفاء، وعمر عدوي؟! وما بال عمر أدخل البُعداء من قريش في الشورى ولم يدخل العباس؟ فإن كان رفعنا لمن ليس بهاشمي على هاشمي منكرًا فأنكروا على العباس بيعته لأبي بكر، وعلى عبد الله بن عباس خدمته لعمر بعد بيعته، فإن كان ذلك جائزًا فهذا جائز، فكأنما ألقم الهاشمي حجرا ([37]).

شهادة الإمام الهادي (ع)

استشهد الإمام أبو الحسن علي بن محمد الهادي (عليه السلام) مسمومًا على يد المعتز العباسي، والمعتز هو محمد بن المتوكل، وكان كالذين سبقوه من الحكّام الغاصبين للخلافة كثير اللهو، وقيل إنه لما قتل المستعين بأمر منه، وحُمل رأسه إليه فدُخل به عليه وهو يلعب الشطرنج، قيل له: هذا رأس المخلوع، فقال: ضعوه حتى أفرغ من الدست -أي اللعب-([38]).

وكان المعتز كأبيه حاقدًا على العلويين فضيّق عليهم حتى مات كثير منهم في سجونه، ومن دلائل حقده على العلويين وخصوصًا على الإمام الهادي (عليه السلام) أنه لم يخفف الضغط عنه، بل شدّد عليه رغم وقوعه تحت رحمة الأتراك، ولكنه كان يخشى من وثوب الأتراك عليه، لذا أشخص من كان بسر من رأى من الهاشميين من أولاد الخلفاء وغيرهم إلى بغداد لئلا يُجلس الأتراك أحدًا منهم، وخوفًا من بيعتهم للإمام الهادي (عليه السلام)، لذلك أبعد كل الهاشميين إلى بغداد وأبقى الإمام (عليه السلام) في سامراء مُراقَبًا من قِبله كما يقول اليعقوبي في تاريخه([39]).

ولما استشهد الإمام الهادي (عليه السلام) بعد سنتين من تولي المعتز، خاف المعتز من حضور جنازته لمّا رأى كثرة الضجيج والبكاء على رحيله، لذا أمر برد النعش وأن يدفن في بيته.

وكانت شهادته في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، وقيل في الثالث من شهر رجب سنة 253هـ، عن عمر بلغ أربعين سنة، ودفن في بيته في مدينة سر من رأى بعد أن أقام فيها إقامة جبرية عشرين سنة متوالية، وكانت مدة إمامته ستة وثلاثين سنة تقريبًا.

ولكن للأسف أن هذا المقام الذي كان يناطح السحاب شرفًا وافتخارًا بما ضمَّ من مراقد الأئمة الأطهار (عليهم السلام) نالت منه الأيدي الآثمة، في 12- 2-2005 الموافق 22 محرم سنة 1426هـ، حيث قد قامت مجموعة من الحاقدين بتفجير قبة الإمامين العسكريين (عليهما السلام) في سامراء، وتهاوت تلك القبة الشامخة، وكأن هؤلاء القوم أتباع الشجرة الملعونة لا يملّون ولا يتعبون من نصرة الباطل على مرّ السنين، لذا أرادوا إعادة إحياء هذه السنّة السيئة التي سار عليها المتوكل، وظنوا أنهم بفعلتهم هذه يسيئون إلى أهل البيت (عليهم السلام) وما عرفوا أن المعدن الثمين كلما زاد تأجج النار حوله زاد تألقًا.

ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بتفجير المنارتين الموجودتين في الصحن الشريف صبيحة يوم الأربعاء الواقع في 13 حزيران 2007م الموافق 23 جمادى الأولى 1428هجرية.

نعم، لقد ابتلي أهل البيت (عليهم السلام) بأعداء لا يخافون الله، ولا يرقبون فيهم إلّاً ولا ذمة، وقلَّ من الحكام من لم يضيّق عليهم وعلى شيعتهم، فقد هبت عليهم في أيام المتوكل رياح حقد عاتية، فحاول في سنة 236 هجرية إزالة قبر الحسين وحرثه حتى لا يزار([40])، وحوّل الماء إليه حتى يغرقه ولا يبقى له أثر، فحار الماء واستدار حول قبر الحسين (عليه السلام)، وسُمّيَ ما حوله بالحائر الحسيني، وشتت شمل شيعته وفرقهم في النواحي، فمنهم من حبسوا ومنهم من تواروا، وتناقل الناس أشعارًا منسوبة إلى ابن السكيت عالم النحو الكبير، الذي كان يعلّم ولدي المتوكل. يقول فيها:

تالله إن كانت أمية قد أتت * * * قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله * * * هذا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على ألا يكونوا شاركوا * * * في قتله فتتبعوه رميما([41])

انتهى

---

[25] - مناقب آل أبي طالب، ج4 ص404.

[26] - أعيان الشيعة، ج2 ص38.

[27] - سيرة الأئمة الاثني عشر، السيد هاشم معروف الحسيني، دار القلم، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة 1981، ج2 ص465.

[28] - تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت - لبنان، ج2 ص472.

[29] - الأمالي، الشيخ الصدوق، مؤسسة البعثة، قم المقدسة، الطبعة الأولى 1417هـ، ص 639.

[30] - يديخوا: يذلوا ويقهروا. والإيكاف: الإيقاع في الإثم، ويقال: وضع الوكاف على الحمار، والوكاف: البرذعة.

[31] - العساس جمع ومفرده العس وهو القدح العظيم.

[32] - أي الأغبياء والحمقى.

[33] - إكليل المنهج في تحقيق المطلب، محمد جعفر بن محمد طاهر الخراساني الكرباسي، دار الحديث، قم المقدسة، الطبعة الأولى 1424هـ، ص 128 - 129.

[34] - سورة آل عمران الآية 23.

[35] - سورة المجادلة الآية 11.

[36] - سورة الزمر الآية 9.

[37] - الاحتجاج، الشيخ الطبرسي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، طبعة سنة 1966، ص 455.

[38] - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر، بيروت - لبنان، طبعة سنة 1966، ص359.

[39] - تاريخ اليعقوبي ج2 ص502.

[40] - مرقد الإمام الحسين (ع)/ السيد تحسين آل شبيب، مطبعة شريعت، قم المقدسة، الطبعة الأولى 1420هـ، ص21.

[41] - سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة التاسعة 1413هـ، ص35.

رسالة الإمام العسكري (ع) إلى ابن بابويه

الشيخ أمين ترمس

تحت المجهر

الشيخ أمين ترمس

تمهيد

كنت في مقتبل العمر، وبُعيد بلوغي سنّ التكليف، عندما كنت سمعتُ لأول مرّة برسالةٍ تنسب للإمام أبي محمد الحسن العسكري (عليه السلام)، أرسلها إلى علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، وأذكر جيدًا أنها كانت تطبع على أوراق كبيرة، وتعلّق على جدران بيوت جماعة من محبي أهل البيت (عليهم السلام)، لاعتقادهم أنها وصية من الإمام (عليه السلام) إلى الشيعة بواسطة ابن بابويه، ولما اشتملت عليه من مضامين مهمة، فهذه الأسباب الثلاثة اجتمعت في هذه الرسالة لتُولِّد في نفوس الشيعة احترامًا خاصًا لها، حيث إن المرسل هو الإمام الحادي عشر (عليه السلام) والمُرسَل إليه أحد كبار علماء زمانه، والمضمون للرسالة.

وكنت وقتها أعتقد - كغيري ممن لا يملك معلومات تاريخية تفصيلية- أنها حقًا صادرة عن الإمام (عليه السلام)، وموجّهة إلى ابن بابويه (رحمه الله)، وعندما تشرّفت بالانتساب إلى حوزة قم المقدسة في أوساط العقد الثامن من القرن الماضي، طرق سمعي ولأول مرة كلام من أستاذي سماحة السيد أحمد المددي دام ظله فيه صحة هذه الرسالة، وقتها أصبت بالذهول لاعتقادي أن الرسالة ثابتة ولا مجال للشك فيها.

وأذكر أني عندما سألته عن سبب ذلك، أشار إلي بشكل مقتضب جدًا: أن ابن بابويه لم يكن بذلك السن في حياة الإمام العسكري (عليه السلام) حتى يخاطبه بهذه الكلمات.

ومنذ ذلك الوقت وأنا أنظر إلى هذه الرسالة نظرة المشكك، حتى قرّرت أخيرًا أن أحسم الأمر فيها، إما إثباتًا أو نفيًا، مع رغبة وشوق أكيدين أن تجنح الأدلة نحو الإثبات.

الرسالة تاريخيًا

عندما نريد أن نحاكم مسألة أو واقعة علمية ما، فنحكم لها أو عليها، فإن أول خطوة يجب اتباعها هي البحث عن تاريخها، وفي أيّ مصدر وردت، ومن رواها، واعتمد عليها، وما شابه ذلك.

وما سأقوم به هو اتباع نفس الطريقة الآنفة الذكر، فأقول:

بداية لا بد من تحديد عصر الإمام أبي محمد العسكري (عليه السلام) الذي يفترض أنه أرسل تلك الرسالة، وكذلك عصر ابن بابويه الذي يفترض أيضًا أن الرسالة أرسلت إليه.

أما عصر الإمام (عليه السلام) فإن ولادته كانت في العاشر من شهر ربيع الثاني لعام 232 هجرية، واستلم مقاليد الإمامة بعد استشهاد أبيه الإمام أبي الحسن علي بن محمد الهادي (عليهما السلام) في الثالث من شهر رجب لعام 254هـ، وكانت شهادته (عليه السلام) في الثامن من شهر ربيع الأول لعام 260 هجرية، فكل ما يصدر من الإمام (عليه السلام) وله ارتباط بشأن من شؤون الإمامة، فلا بد أن يكون تاريخ صدوره في تلك الفترة ما بين عامي 254 هـ و260هـ.

وأما عصر ابن بابويه فلا بد من الإسهاب قليلاً فيه لتوقّف عدة استنتاجات في هذا البحث عليه، وتوضيح ذلك في نقاط ثلاث:

النقطة الأولى: أن ابن بابويه هو علي بن الحسين بن موسى بن بابويه أبو الحسن القمي (والد الشيخ الصدوق)، المعروف بين المتأخرين بالصدوق الأول أو الصدوق الأب، ترجم له الشيخ النجاشي في كتابه فقال:

(... شيخ القميين في عصره، ومتقدَّمهم، وفقيههم، وثقتهم، كان قدم العراق واجتمع مع أبي القاسم الحسين بن روح رحمه الله، وسأله مسائل، ثم كاتبه بعد ذلك على يد علي بن جعفر بن الأسود، يسأله أن يوصل له رقعة إلى الصاحب (عليه السلام)، ويسأله فيها الولد، فكتب إليه: " قد دعونا الله لك بذلك، وسترزق ولدين ذكرين خيّرين" فولد له أبو جعفر وأبو عبد الله من أم ولد... ومات علي بن الحسين سنة تسع وعشرون وثلاثمائة...)([1]).

وذكره الشيخ الطوسي في فهرسته بقوله:

(... كان فقيهًا جليلاً ثقة...)([2])، وكذلك في رجاله ([3])، وكل من جاء من بعده ذكره بكل احترام وتبجيل وثناء وتجليل.

النقطة الثانية: في الوقت الذي اتفق أكثر العلماء وأهل التحقيق على تاريخ وفاته وأنه سنة 329 هـ، لم يشر أحد منهم إلى زمن ولادته، شأنه شأن الكثير من الأصحاب، علمًا أن تحديد سنة ولادته مهم جدًا لتوقف إثبات هذه الرسالة على ذلك، فإذا فرض أنه كان من مواليد سنة 250 هجرية وما بعدها، فحينئذٍ لا يمكن قبول هذه الرسالة، بينما لو ثبت أنه من مواليد سنة 220 وما قاربها، يمكن حينئذٍ قبولها، اللهم إلا إذا كان هناك مانع آخر.

وعدم ذكر زمن ولادته في كتب التراجم والتاريخ لا يعني أنه مجهول العصر والطبقة، لأننا لا نعدم طرق أخرى نستطيع من خلالها أن نحدد عصره وطبقته.

وبنظرة سريعة على مشايخه، ومن روى عنهم يتبيّن أنه روى عمن عاش في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع، فقد روى عن جماعة، من أشهرهم:

1- أحمد بن إدريس أبو علي الأشعري القمي، توفي سنة 306هـ.

2- حميد بن زياد، توفي سنة 310 هـ.

3- سعد بن عبد الله الأشعري القمي، توفي سنة 299 أو 301 هـ.

4- علي بن إبراهيم بن هاشم القمي، كان حيًا سنة 307 هـ.

5- عبد الله بن جعفر الحميري القمي، كان حيًا إلى ما بعد سنة 290 هـ.

6- محمد بن الحسن الصفار القمي، توفي سنة 290 هـ.

هذه نماذج من مشايخ ابن بابويه، وبحسب طريقة المحقق والمدقق الكبير في هذا الفن السيد البروجردي في ترتيب طبقات الأصحاب، فهؤلاء جميعًا من طبقة واحدة وهي الطبقة الثامنة، ويشاركهم فيها أيضًا:

7- محمد بن يحيى العطار القمي.

8- الحسين بن محمد بن عامر الأشعري.

ولم يثبت بطريق علمي أنه روى عمن كان قبل هذه الطبقة، اللهم إلا دعوى يتيمة ذكرها السيد أحمد الخوانساري في روضات الجنات ([4])، نقلاً عن بعض أفاضل المحققين، مفادها: أن ابن بابويه روى عن الحسين بن سعيد الأهوازي، وهذه دعوى لا حظّ لها من الصحة، ولا سبيل إلى إقامة الدليل عليها، ولا الطبقة تساعد على ذلك، والمعروف والمعهود أن ابن بابويه يروي عنه بواسطتين في عشرات الموارد.

ثم لو كان في زمن الإمام العسكري (عليه السلام) قد بلغ مرتبة من العلم والمكانة بحيث يخاطبه الإمام (عليه السلام) بقوله "يا شيخي ومعتمدي وفقيهي" لكان من المفترض أن يروي عن عدد من أصحاب ومعاصري الإمامين الجواد والهادي (عليهما السلام)، فضلاً عن أصحاب ومعاصري الإمام العسكري (عليه السلام)، وقد ثبت أنه لم يروِ مباشرة عن:

1- أحمد بن إسحاق الأشعري القمّي، الذي كان وافد القميين إلى الأئمة لأخذ المسائل والردود منهم، وتوفي بعد سنة 260 هـ.

2- أحمد بن محمد بن خالد البرقي القمّي، توفي سنة 274 أو 280 هـ.

3- أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمّي، كان حيًا عندما توفي البرقي المتقدم، وسار في جنازته.

4- إبراهيم بن محمد الثقفي، صاحب كتاب الغارات توفي 283هـ.

5- الحسن بن محمد بن سماعة الحضري، توفي سنة 263هـ.

6- الحسين ين سعيد الأهوازي، كان حيًا سنة 254هـ.

7- سهل بن زياد الآدمي، الذي كاتب الإمام العسكري (عليه السلام) سنة 255 هـ.

8- علي بن الحسن بن فضال، كان حيًا حدود سنة 270 هـ.

9- الفضل بن شاذان النيشابوري، توفي سنة 260هـ.

10- محمد بن أحمد بن يحيى الأشعري القمي، صاحب كتاب النوادر، توفي حدود سنة 280هـ.

11- محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، توفي سنة 262هـ.

12- محمد بن علي بن محبوب الأشعري القمي، كان حيًا قبل سنة 274هـ.

وغيرهم ممن كان في طبقتهم، فمن غير المعقول أن يكون ابن بابويه في زمن هؤلاء الأعلام الذين حملوا العلم ونشروه في الآفاق، وأكثرهم من مدينة قم، وجميعهم كانوا في زمن الإمام العسكري (عليه السلام)، ثم لا يروي عن أحد منهم.

والقائل بصحة هذه الرسالة لا بد وأن يلتزم أن ابن بابويه كان من مواليد سنة 220 هـ، وما قبلها حتى يُقبل مخاطبة الإمام عليه السلام له بـ" يا شيخي ومعتمدي وفقيهي" ولازم هذا القول أن ابن بابويه عاش 109 سنوات أو ما يزيد، وهذا وإن كان ممكنًا في نفسه، بيد أنه يفتقر إلى الدليل عليه، والسبب في ذلك هو أن عادة علماء التراجم والرجال الإشارة إلى من كان من المعمَّرين، أو تجاوز عمره السن المتعارف عليه في الرواية، وبنظرة سريعة على كتاب النجاشي نستطيع الحكم على ديدنهم هذا بشكل واضح، فلاحظ ما قاله عند ترجمة كل من:

1- إسحاق بن الحسن العقرائي([5]).

2- أحمد بن عبد الواحد بن عبدون([6]).

3- جعفر بن محمد بن جعفر([7]).

4- حنَان بن سَدير الصيرفي([8]).

5- بكر بن محمد الأزدي([9]).

6- سُعدان بن مسلم([10]).

7- عبد الله بن سعيد الكناني([11]).

8- علي بن حسان الواسطي([12]).

9- علي بن علي بن رزين الخزاعي([13]).

10- محمد بن الحسن بن شمون البغدادي([14]).

11- محمد بن جمهور العمّي([15]).

12- محمد بن خالد الطيالسي([16]).

13- محمد بن الوليد البجلي الخزاز([17]).

14- محمد بن معروف الخزاز الهلالي([18]).

فهؤلاء جميعهم وصفهم النجاشي بأنهم من المعمّرين، وهذا فقط في كتاب النجاشي، وعند غيره كثير من هذا.

يتبع =

---

[1]- رجال النجاشي ص261 رقم 684.

[2] - فهرست الطوسي، ص 273 رقم 393.

[3] - رجال الطوسي ص432 رقم 34 باب من لم يروِ عن واحد من الأئمة عليهم السلام.

[4] - روضات الجنات: 5/339 رقم 542.

[5]- رجال النجاشي، ص74، رقم 178.

[6]- المصدر السابق، ص87، رقم 211.

[7]- المصدر السابق، ص122، رقم 314.

[8]- المصدر السابق، ص146، رقم378.

[9]- المصدر السابق، ص108، رقم 273.

[10]- المصدر السابق، ص192، رقم 515.

[11]- المصدر السابق، ص217، رقم565.

[12]- المصدر السابق، ص276، رقم726.

[13]- المصدر السابق، ص276، رقم727.

[14]- المصدر السابق، ص335، رقم899.

[15]- المصدر السابق، ص337، رقم901.

[16]- المصدر السابق، ص340، رقم910.

[17]- المصدر السابق، ص345، رقم931.

[18]- المصدر السابق، ص362، رقم 975.

* مبلّغ ديني ومدرّس في الحوزة العلمية.

تتمة مقال = رسالة الإمام العسكري (ع) إلى ابن بابويه

وبناء عليه يصبح طرح السؤال التالي في هذا المقام وجيهًا، وهو:

إذا كان ابن بابويه من هؤلاء الذين عمّروا، فلماذا لم يُشر إلى ذلك أحد من علماء التراجم، ولم يروِ عن أحد من المشاركين له في الطبقة تؤيد أنه كان من المعمّرين؟!

وإذا لم يكن هناك جواب - كما هو حاصل فعلاً - فلا محيص عن الالتزام بعدم صحة دعوى كونه من أصحاب الإمام العسكري (عليه السلام)، وإلا لو كان لبان، وعليه لم يبقَ أمامنا إلا الاعتراف بأن ولادته كانت في بداية النصف الثاني من القرن الثالث، أي في زمن الإمام العسكري (عليه السلام) أو ما قارب عصره.

وبالتالي من كان عمره بضع سنين لا يخاطب عادةً بمثل هذه الكلمات التي وردت في تلك الرسالة، وأما القول بأنه من مواليد سنة 230هـ، وأنه عاش قرنًا من الزمن وعاصر ثلاثة من الأئمة المعصومين (عليهم السلام)([19]) بل وكان سفيرًا للإمام العسكري (عليه السلام) بقم ([20])، وأن وصف الإمام (عليه السلام) له وهو في السن من الأحداث، دليل على مقامه العظيم ([21]). كل ذلك لا دليل عليه ولا الواقع يساعد على قبوله.

النقطة الثالثة: في ذكر المصادر التي وردت فيها هذه الرسالة.

إن أول مصدر نسبت([22]) إليه هذه الرسالة هو كتاب الاحتجاج للعلامة أبي منصور أحمد بن علي الطبرسي، وهو من أعلام القرن السادس، ولكن في المطبوع منه - قديمًا وحديثًا - لا يوجد أي أثر لهذه الرسالة فيه، مع أن طبعة دار أسوة في إيران قد حققت على أربع نسخ قديمة، وقد صرّح العلامة الطهراني - في حاشية له على ما

ذكره أستاذه النوري في الخاتمة ([23]) - أنه لم يعثر عليها فيما وصله من نسخ الاحتجاج، وهذا كلام مهم من متتبع خبير في هذا الفن.

ثم صرّح ابن شهر آشوب المازندراني، المتوفى سنة 588هـ، بوجودها، ونقل منها جزءًا من بدايتها وجزءًا من نهايتها باختلاف يسير في كتابه مناقب آل أبي طالب([24]).

ونسب في رياض العلماء([25]) وجودها إلى كتاب الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة للشهيد الأول، ولكن ما هو مطبوع من الكتاب خال عن ذكرها البتة، مع أنها محققة على عدة نسخ،وقد صرّح العلامة النوري([26]) أنه لم يعثر عليها في الكتاب، وموضع الكتاب لا يناسب ذكر هكذا رسائل، قال العلامة المجلسي في بيانه لوثوق المصادر التي اعتمد عليها عند وصفه للدرة الباهرة:" وهو مقصور على إيراد كلمات وجيزة مأثورة عن النبي (صلى الله عليه وآله) وكل من الأئمة (عليهم السلام) ([27]).

والذي يظهر أن جميع من ذكر هذه الرسالة من المتأخرين اعتمد في النقل على من سبقه، وأقدم من ذكرها - كما هي عليه الآن - هو السيد القاضي نور الله المرعشي التستري، الذي استشهد سنة 1019هـ في كتابه مجالس المؤمنين([28]) وهو باللغة الفارسية، ولم يذكر السيد القاضي المصدر الذي اعتمد عليه في نقله لها.

وبعد هذا كيف يمكن لنا أن نعتمد على هذه الرسالة؟!

ثم من حق أي باحث أو قارئ في هذا المقام أن يسال:

1- لماذا لم يروِ هذه الرسالة نفس ابن بابويه عن الإمام (عليه السلام) مباشرة في أي كتاب له على كثرة كتبه؟! ثم هذه منقبة ما بعدها منقبة، فمن حقه أن ينقلها ويفخر بها، ويُعَرِّفَها القاصي والداني، ولا وجه لكتمانها، خصوصًا أنها موجهة إلى شيعة الإمام (عليه السلام) من ورائه، وبعد اختفائها لعدة قرون تظهر ومن دون سند أو مصدر.

2- هب أن الصدوق الأب، لم ينقلها، فما هو المبرر للصدوق الابن أن لا ينقلها أو يشير إليها، وهو الراوي لتراث أبيه؟!

علمًا أن الصدوق الابن لطالما افتخر - ومن حقه ذلك - أنه ولد بدعاء الإمام الحجة (عليه السلام) عندما كتب أبوه إلى الإمام (عليه السلام) في زمن السفير الثالث يسأله الولد، وقد مرّت العبارة في ترجمة ابن بابويه من كتاب النجاشي.

3- لماذا لم ينقل أحد ممن ترجم لابن بابويه من القدماء على كثرتهم أيّة إشارة إلى هذه الرسالة؟ مع أن من عادتهم أن لا يغفلوا من كاتب الإمام وكتب إليه جوابًا على مسألة شرعية خاصة، فكيف إذا كانت وصية من الإمام إلى أحد كبار العلماء، ومن ورائه إلى جميع الشيعة؟

4- إن متن الرسالة - كما ستعرف - يتضمن عدّة مسائل تتعلق بعدة أبواب من الفقه والعقيدة والأخلاق والآداب بالإضافة إلى ثلاثة أحاديث تنسب إلى النبي (صلى الله عليه وآله): الأول: يتعلق بصلاة الليل، والثاني: بانتظار الفرج. والثالث: بالإمام المهدي (عليه السلام)، فلماذا لم يستند إليها أحد من القدماء في أيّ حكم من الأحكام الشرعية أو العقائدية أو الأخلاقية؟!

مع أن الشيخ الصدوق الابن أكثر في كتبه - خصوصًا من لا يحضره الفقيه - من النقل عن رسالة أبيه التي كتبها له، فلو كانت رسالة الإمام ثابتة عنده لكان النقل منها أولى وآكد.

وأخيرًا، يمكن أن يقال: إن هذه الرسالة أرسلها الإمام (عليه السلام) إلى شخص آخر يتفق مع ابن بابويه باسمه واسم أبيه وكنيته، وأنه من قم، فنسبت إلى ابن بابويه عن طريق الخطأ.

أقول: هذا ممكن وقد يكون هو شيخ ابن بابويه أبو الحسن علي بن الحسين السعدآبادي القمي، إلا أن الرجل لم يكن بهذه المنزلة الرفيعة حتى يخاطبه الإمام (عليه السلام) بهذه الكلمات، كيف ومن ذكره من قدماء علماء الرجال والتراجم لم يوثّقه أصلاً، بل لم يمدح مدحًا يعتدّ به.

هذا بالإضافة إلى عدة تساؤلات أخر تقدّمت حول أصل الرسالة لا يمكن الإجابة عنها.

متن الرسالة كما وردت في: رياض العلماء([29])، وروضات الجنات([30])ومعادن الحكمة ([31])، وخاتمة المستدرك([32]):

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والجنة للموحدين، والنار للملحدين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ولا إله إلا الله أحسن الخالقين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعترته الطاهرين...

أما بعد...

أوصيك يا شيخي ومعتمدي "وفقيهي([33])" أبا الحسن علي بن الحسين "ابن بابويه"([34]) القمي - وفقك الله لمرضاته، وجعل من صلبك أولادًا صالحين برحمته، بتقوى الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإنه لا تُقبل الصلاة من مانع الزكاة، وأوصيك بمغفرة الذنب، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، ومواساة الإخوان، والسعي في حوائجهم في العسر واليسر، والعلم "الحلم" ([35]) عند الجهل، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمور، والتعهد "والتعاهد" ([36]) للقرآن، وحسن الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله عز وجل: **{لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ**

نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ}([37]) واجتناب الفواحش كلها. وعليك بصلاة الليل، فإن النبي صلى الله عليه وآله أوصى عليًا عليه السلام فقال: يا علي عليك بصلاة الليل، عليك بصلاة الليل، عليك بصلاة الليل، ومن استخف بصلاة الليل فليس منا.

فاعمل بوصيتي، وأمر جميع ([38]) شيعتي "بما أمرتك به" ([39]) حتى يعملوا عليه، وعليك بالصبر وانتظار الفرج، فإن النبي صلى الله عليه وآله قال: أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج، ولا يزال([40]) شيعتنا في حزن حتى يظهر ولدي الذي بشّر به النبي صلى الله عليه وآله حيث قال ([41]): إنه يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا.

فاصبر - يا شيخي "ومعتمدي يا أبا الحسن عليّ" ([42]) - وأمر جميع شيعتي بالصبر، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

والسلام عليك، "وعلى جميع شيعتنا" ([43])، ورحمة الله وبركاته، وحسبنا الله ونعم المعين "الوكيل" ([44])، نعم المولى ونعم النصير ([45]).

انتهى

---

[19] - لاحظ مقدمة محقق كتاب الإمامة والتبصرة، ص36، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام)

[20] - لاحظ كتاب النقض للقزويني ص209.

[21] - لاحظ خاتمة المستدرك للنوري، ج3، الفائدة الثالثة، ص278.

[22] -لاحظ لؤلؤة البحرين، ص384، رقم 122؛ وروضات الجنات، ج4، ص265 رقم 397؛ وخاتمة المستدرك، ج3، ص276.

[23] - خاتمة المستدرك، ج3 ص276 من الهامش.

[24] - مناقب آل أبي طالب، ج 4 ص425.

[25] - رياض العلماء، ج4 ص7.

[26] - خاتمة المستدرك، ج3 ص 278.

[27] - بحار الأنوار، ج1، ص29.

[28] - مجالس المؤمنين، ج1، ص453.

[29] - رياض العلماء، ج4، ص7.

[30] - روضات الجنات، ج4، ص265.

[31] - معادن الحكم، ج2، ص265 رقم 109.

[32] - خاتمة المستدرك، ج3 ص276.

[33] - هذه الكلمة موجودة في كتابي روضات الجنات ومعادن الحكمة.

[34] - هذه الكلمة موجودة في كتاب معادن الحكمة.

[35] - هذه الكلمة موجودة في كتابي روضات الجنات ومعادن الحكمة،و"عند الجهل غير موجودة في معادن الحكمة"، وفيه أيضًا "الأمر" بدل "الأمور".

[36] - موجودة في الكتابين المتقدمين.

[37] - النساء: من الآية114.

[38] - كلمة "جميع" ليست في كتاب الروضات.

[39] - هذه العبارة موجودة في خاتمة مستدرك الوسائل.

[40] - في كتاب معادن الحكمة وخاتمة المستدرك: "تزال".

[41] - "حيث قال"، هذه العبارة غير موجودة في روضات الجنات ومعادن الحكمة.

[42] - هذه العبارة موجود منها جزء في الروضات وجزء في خاتمة المستدرك.

[43] - هذه العبارة موجودة في الروضات والمعادن والخاتمة.

[44] - هذه الكلمة في الروضات والخاتمة والواو بعدها غير موجودة في الروضات والخاتمة.

[45] - من عند "حسبنا".. إلى الأخير: غير موجودة في المعادن ويوجد عوض عنها قوله "وصلى الله على محمد وآله".

قراءة في عصر الإمامين العسكريين(ع)

الأستاذ حسن جابر

الإمامان العسكريان(ع)

قراءة في عصرهما، ودورهما في مواجهة الأحداث

الأستاذ حسن جابر

إطلالة على واقع التاريخ

مما لا شك فيه أن التصدّي الموضوعي لكتابة التاريخ ليس من الأمور السهلة التي تُتناول كيفما اتفق، حتى مع وجود العصبيات والعواطف والميول التي تلغي عدالة الراوي أو الناقل أو المؤرّخ.

وغالبًا ما كانت تتم عملية التعرّض للتاريخ بشكل افتراضي، وأحيانًا موجّه لخدمة سياسيات الحكّام، وتحت تأثير الأهواء الحزبية والعصبية.

وكم من المؤرخين راح "... يكتب تاريخه بمجموع عواطفه، وسائر مرتكزاته، وبخاصة في الحوادث التاريخية التي تقترن بخلافٍ بين جماعتين..."([1]).

وعمليًا حينما نريد استلهام تاريخنا الإسلامي نجده على صورة ما تقدّم، لماذا؟

... "لأن الأشخاص الذين كانوا يعيشون تلك الأزمنة، إنما عاشوها بصفتها حياة عادية، لا يُعيدون فيها النظر ولا يتعمّقون بأسبابها ونتائجها..."([2]).

في ظل هكذا أجواء من التأريخ تمَّ التعرّض لسيرة الرسول (صلى الله عليه وآله)، وأهل بيته (عليهم السلام)، فوُضع (صلى الله عليه وآله) في دائرة زمنية محدّدة من التاريخ، ورافق ذلك محاولات مغرضة ومتعمّدة لجعل الأئمة (عليهم السلام) في دائرةِ التنازعِ على الحكم، فلما لم يستطيعوا الحصول على حظّ وافرٍ من التأييد والدعم أُبعدوا وأُقصوا عن ساحة عملهم لقلّة خبرتهم وحنكتهم في التعاطي الميداني على كافة المستويات وبخاصة السياسية والعسكرية.

وهمَّ بعض المؤرخين لفصل الأدوار التي اضطلع به أئمتنا (عليهم السلام) وتمييع نُبل الأهداف التي سعوا لترسيخها وتثبيتها في الأمة لتصبح جزءًا من شخصيتها الرائدة، كأمة وسطًا.

ورأى البعض من المغرضين في الإمام الحسن (عليه السلام) إنسانًا متثاقلاً عن الجهاد يركن لشروط معاوية مخالفًا سياسة أبيه في الشجاعة، وفي الحسين (عليه السلام) مثالاً حيًّا لعليّ في الاستبسال والإقدام، مع ما كلّفه ذلك نفسَه وأهلَ بيته والأصحاب.

مع كل ذلك ورغم ارتفاع الأبواق من قصور وبلاط السلاطين للنيل منهم (عليهم السلام) وما رافق ذلك من حملات متتالية لإسقاط عنفوان ما للأئمة في نفوس مواليهم ومحبّيهم، تمهيدًا لفصلهم عن قواعدهم الشعبية الآخذة بالاتساع والتأييد، إلا أن تلك المحاولات جميعها باءات بالفشل والنكوص والاندحار أمام ثبات أئمتنا (عليهم السلام) وصمود الأتباع.

غاية البحث

على ضوء ما تقدّم أردنا تسليط الضوء - ضمن طيات هذه العجالة المتواضعة - على حياة إمامينا العسكريين (عليهما السلام)، وإبراز ما اضطلعا به من دور تجاه الدعوة (التجربة) الرائدة، وحفظها بصلابةٍ وعلوّ همة كبيرين، وقد عبّرا (عليهما السلام) في حياتهما - على قصرها الزمني - عن سلسة انتصارات على قوى الأمر الواقع وإحراج سلاطين الجور وإفحامهم في أكثر من موقع وفي أكثر من حوار، ثم اتجها (عليهما السلام) لحفظ القاعدة الرسالية وإدارة شؤونها عن كثب، وحفظ الدين وصيانته من عمليات الدسّ والانحراف بأساليب شتّى.

الاتجاه العام لدور الإمامين العسكريين (ع)

على الرغم من أن الإمامين العسكريين (عليهما السلام) عاشا في ظروف سياسية واجتماعية مفعمة بالتعقيدات والملابسات، مما حَدَا بحكّام عصرهما إلى زيادة المراقبة والضغط عليهما، ومحاولة عزلهما وإقصائهما (عليهما السلام) عن مجال تحمّلهما للمسؤولية وقيادة الأمة، إلا أنهما استطاعا (عليهما السلام) تحصين الرسالة بوجه كل تردّيات الانزلاق والانحراف عن المبادئ والقيم الرسالية.

وقد نجح إمامانا العسكريان (عليهما السلام) في إيقاد حركة المواجهة التغييرية، وخلق جيل متصدّ داخل الأمة، للحفاظ على نقاء وصفاء التجربة، وضمان استمرار هذا الخط ليبقى طليعة التصحيح لاتجاه الأمة والسير بها نحو أمانها، ولأن إمامينا (عليهما السلام) مثّلا بشكلٍ دائم خط المعارضة الصامدة ضد أجهزة الانحراف، فقد تمثّلت مواقفهما بأمرين:

1- توليهما الدائم لمنصب الإمامة، واعتبارهما باستمرار - ولو نظريًا - في موقع رئاسة الدولة.

2- قيامهما المستمر بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للإصلاح في أمة جدهما رسول الله (صلى الله عليه وآله) نتيجة الظلم والانحراف والحروب الجائرة والمصالح الشخصية التي سببت في أغلبها بؤسًا اقتصاديًا وتخلّفًا اجتماعيًا مؤسفًا([3]).

هذه المواقف لدى إمامينا (عليهما السلام) كانت تثير المخاوف لدى السلطات، مما زاد في عمليات الضغط والمراقبة والتطويق لهما، ومحاولات فصلهما عن قواعدهما ومؤيديهما، حتى وصل الأمر إلى تدبير المؤامرات للاعتداء على حياتهما والعمل على قتلهما.

دور الإمامين العسكريين (ع) في حفظ الدين وصون الرسالة

أ - خصائص عصر الإمامين العسكريين (ع):

(1) انتقال عاصمة الخلافة العباسية من بغداد إلى سامرّاء بأمر من المعتصم، وكان ذلك نتيجة سوء سلوك وأخلاق الموالي مع الناس([4])، فقد سيطر الموالي (أتراك - مغاربة وفراغنه) - في العاصمة الجديدة - على مصير الخلافة والخلفاء، وتحكّموا بالوضع، حتى بات الخليفة ألعوبة بأيديهم، يُعزل أو يُقتل ساعة يشاؤون، مما أضعف هيبة الخلافة، فتوالت عمليات الانفصال عن الدولة العباسية ونشوء دويلات متعددة، قامت على أطراف وتخوم الدولة العباسية، خاصة عندما تتوفّر للوالي أسباب الانفصال من مالٍ ورجال.

وقد برزت آنذاك الدولة الطولونية (256-292هـ)، وبعدها الدولة الإخشيدية (323-334هـ) في مصر، والدولة الفاطمية (296-487هـ) في تونس، ثم نقل الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله العاصمة إلى مصر سنة 362هـ، والدولة الحمدانية في حلب (333-392هـ)، وانتهت الصلة الوثيقة التي كانت تربط الدولة العباسية بدول الأطراف، والتي تناحرت طمعًا بالتوسّع والاستئثار.

وقد تعاقب على حكم سامرّاء عدد من خلفاء بني العباس، وهم:

المعتصم - الواثق - المتوكّل - المنتصر - المستعين - المعتز بالله - المهتدي - المعتمد على الله - والمعتضد بالله.

(2) ومن خصائص هذا العصر: حدوث أعمال شغب وفتنٍ في بغداد على يد الشاكرية الذين استعظموا وهالهم قتل المتوكل، فنادوا بالنفير، وفتحوا السجون، وأحرقوا أحدَ الجسرين([5]).

وما حدث أيام المستعين العباسي حين سار إلى بغداد ليقمع شغب الأتراك والموالي([6])، وشغب الجند الذين طالبوا بأرزاقهم ورواتبهم.

(3) سياسة اللهو والترف والمجون التي اعتمدها معظم الخلفاء، مما أفقد الناس ثقتهم بملوكهم وولاتهم، وتثاقلوا عن نصرة الدولة، فخسر المجتمع عناصر قتالية كانت تذود عن حياضه، فأصبحت الدولة لقمة سائغة لكل غازٍ ومحتلّ.

(4) ثورة القرامطة ذات النزعة الاشتراكية في البحرين، والذين أغاروا على بلاد الشام وغزوا مكة، ونقلوا الحجر الأسود إلى بلادهم، وهدّدوا الخلافة العباسية والولاة والأمصار([7]).

(5) ثورة الزنج (جنوب العراق)، وهم طائفة من عبيد إفريقيا قادهم رجل فارسي يسمى علي بن محمد من أهالي طالقان، أثاروا القلق والرعب في حاضر الخلافة العباسية ودامت ثورتهم الجامحة أكثر من أربع عشرة سنة في المستنقعات بين البصرة وواسط، وانضمت إليهم جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة تخلّصًا من حالتهم([8]).

(6) النزاعات المذهبية والصراعات الدينية، حيث برزت الفرق الكلامية والمدارس الفلسفية، فأفرزت مذاهب متنوعة، فكفّر كل فريق الآخر ومارس الاضطهاد بحقّه مما أضعف الدولة المركزية وحوّلها إلى دويلات متناحرة لا تقوى على الصمود ودفع العدوان.

ب - الحقد العباسي في مواجهة الإمامين العسكريين (ع)

(1) كانت الدولة العباسية تعاني الضعف والوهن، نتيجة لما واجهته سابقًا، وكان ذلك منذ بداية عهد المعتصم حتى عهد المعتضد بالله، جرّاء ما مارسه الأتراك (أخوال المعتصم)، والذين استعان بهم لقمع الحركات الثورية وقوى المعارضة، فقويت شوكتهم، وأصبحوا فيما بعد كل شيء في الدولة (كما ذكرنا سابقًا).

وبالرغم من ذلك لم يثن العباسيين ولم تمنعهم تلك المشاغلات العامة - داخل وعلى أطراف الدولة - من التنكيل بالإمامين العسكريين (عليهما السلام) وملاحقتهم وبثّ أحقادهم تجاههما (عليهما السلام).

... "وكان من المتوقّع وفي هذا الجو من ضعف السلطة أن يخف الضغط والإرهاب على الإمام العسكري (عليه السلام) وأصحابه، لكن شيئًا من هذا لم يحدث، بل زادت موجة الإرهاب والضغط وبلغت أوجها على يد الخليفة المعتمد.."([9]).

(2) القيام بحملات المطاردة والاضطهاد والتدمير لكل أثر من آثار موالي آل البيت (عليهم السلام) ومشايعيهم.

(3) محاولات عزل الإمامين العسكريين (عليهما السلام) عن قواعدهما الآخذة بالاتساع والتأييد شيئًا فشيئًا، وقد تمثّل ذلك باستقدام الخلفاء للإمامين العسكريين (عليهما السلام) إلى سامراء ليكونا تحت الرقابة الصارمة ورصد تحرّكاتهما وتحرّكات الذاهب والآيب.

(4) كبس دار كل من الإمامين (عليهما السلام) وتفتيشها بشكل دائم عقيب كل وشاية أو معلومة تأتي للخليفة عن نشاطهما (عليهما السلام)، وسرعان ما كانت تبوء هذه المحاولات بالفشل، لعدم وجود أيّ دليل يدينهما (عليهما السلام)، وسرعان ما يعود الهدوء والتظاهر بالاحترام والتقدير لهما (عليهما السلام).

وكان لما يُظهره كل من الإمامين (عليهما السلام) من لا مبالاة ورباطة جأش عند عمليات الكبس، الأثر البالغ في تبديد مخاوف السلطات، وقد برز ذلك مع الإمام الهادي (عليه السلام) عندما كان يرشدهم إلى غرف الدار مسرجًا لهم الضياء، موحيًا لهم أنه لا يملك أيّ نشاط مريب وغريب([10]).

ج - دور العسكريين (ع) في مواجهة الأحداث

(1) حفظ الدين من عمليات الدرس والانحراف والافتراء التي مارسها الوضّاعون الذين لازموا الحكّام والملوك، واصطنعوا لأنفسهم الهالات، وقد ساعدهم على ذلك الحُكّام ليتحوّلوا إلى مجموعة مستزلمين وموتورين (مرتزقة) وألبسوا -تقمّصًا - لبوس الدين وأسبغت عليهم ألقاب العلم والعلماء والرواة... الخ، لتحصين حكومات الضلال والفساد والجور، وتقييد الناس بأحاديث الصبر ولزوم أمر الجماعة والحكام وإن أفسدوا، تمهيدًا لسقوط الأمة ولتتحقق رغبة (لأتأمر عليكم) وبعدها (فلا خبرٌ جاء ولا وحي نزل).

(2) توعية الأمة وإرشادها إلى منابع الدين الأصيل.

(ما جاءكم عنا فاعرضوه على القرآن، فإن وافقه فخذوه، وإن لم يوافقه فاتركوه)، الحديث كما أُثر عن الإمام الصادق (عليه السلام).

وقد عمل الإمامان (عليهما السلام) على صياغة شخصية الأمة وتحصينها لمقاومة التيارات الفكرية والتي تُشكّل خطرًا على الرسالة، ولضربها في بدايات تكوّنها... "وقد استهدف أئمتنا (عليهم السلام) الحفاظ على تواتر النصوص عبر أجيال عديدة حتى تُصبح في مستوى الوضوح والاشتهار، تتحدّى كل مؤامرات الإخفاء والتحديد، وقد شكّل الأئمة (عليهم السلام) بمجموعهم وحدة مترابطة الأجزاء ليواصل كل جزء من تلك الوحدة الدور للجزء الآخر ويكمّله"([11]).

(3) فضح زمرة الزنادقة والمنحرفين وعلماء البلاط وتعريتهم أمام الرأي العام، حيث كانوا يُستقدمون لإحراج الإمامين العسكريين (عليهما السلام) في محضر عام.

... "وقد تمثّل ذلك بطلب المتوكّل من ابن السكيت بإحراج الإمام الهادي (عليه السلام) بمسألة عوصاء، إلا أن الإمام (عليه السلام) يخرج ظافرًا من التحدّي، حتى يحي بن أكثم يطلب من المتوكل عدم توجيه أي أسئلة للإمام الهادي (عليه السلام) لأن في إظهار علمه تقوية للرافضة على حدّ قوله"([12]).

وقد ردّ الإمامان (عليهما السلام) على كل شبهات الملاحدة الرائجة في مجتمعهما([13]).

(4) الحفاظ على النُّخب الرسالية الملتزمة، والكتل المؤمنة بهما (عليهما السلام) وحمايتها، "... وإسعافها بأساليب الصمود في خضم المحن وارتفاعها إلى مستوى الحاجة الإصلاحية، إلى جيش عقائدي وطبقة واعية"([14]).

والتعامل معهم بالترميز أحيانًا كثيرة لمنع شلّهم وإبعاد خطر التصفية عنهم وتزويدهم بالخطط، وأمرهم بالصمت عند أيّ حدث غير طبيعي حتى يستقر الوضع على ما كان عليه.

... "تلك التوجيهات التي تشكّل حجر الزاوية في تأجيج نار الإيمان ونور الإخلاص وعاطفة العقيدة عند أصحابهما ومواليهما وزرع روح التضحية والجهاد فيهم"([15]).

(5) الرضا الضمني عن الأثر الإيجابي الذي تحدثه بعض الحركات الثورية التي كانت تقوم في مواجهة الحكّام مع عدم الاشتراك بها، أو حتى الدعوة إليها، لأنه - وحسب قناعة العسكريين (عليهما السلام) فإن تلك الثورات غالبًا ما كانت تدفعها العاطفة، ويقودها الاندفاع، وظروف انتصارها - على المستوى العسكري - غير مؤاتية، وإن كان قيامها ضروريًا من أجل تحريك ضمير الأمة، وإيقاظ إرادتها، وتحصينها في وجه الانحراف المزمن المتفشّي بين ظهرانيها، وإبعاد خطر الانهيار القاتل عنها، إذ لا بد بين الحين والآخر من عملية تذكير من خلال المشاغلة العسكرية من ناحية، والتي كان يقودها الثوار، والممانعة الفكرية التي قادها الإمامان العسكريان (عليهما السلام) وجيلُ المفكرين النخبوي الذي ربياه عقيدة وفكرًا وجهادًا وإخلاصًا.

وقد قامت في عهد الإمامين الهادي والعسكري (عليهما السلام) ثورات علوية عديدة وشعارها (الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله).

ولم يذكر التاريخ بأن أيًّا من الإمامين (عليهما السلام) قد دعم تلك الثورات علنًا أو أمر برفدها، وإن كان يقوم بسند المخلصين منهم من خلال تعاليمه التي كانت تؤثر في القواعد المؤمنة.

ولعلّ تلك الثورات العلوية هي ما كان يقضّ مضاجع الحكّام ويهدد بإسقاط دولتهم، فسعوا لإجهاضها وبثّ الرعب في نفوس الثائرين، والمبالغة في أساليب الترهيب والقتل لمنع قيام أي حركة مقاومة لاحقًا.

... "فتزكُ الأئمة (عليهم السلام) إذن العمل المسلح بصورة مباشرة ضد المنحرفين، لم يكن يعني تخليهم عن الجانب الاجتماعي من قيادتهم، وانصرافهم إلى العبادة، وإنما كان يعبّر عن اختلاف صيغة العمل الاجتماعي التي تحددها الظروف الموضوعية، وعن إدراك معمّق لطبيعة العمل التغييري وأسلوب تحقيقه"([16]).

وهذا الإمام العسكري (عليه السلام) كان إزاء بعض الأحداث يقف موقف المراقب دون تصريح إيجابي أو سلبي، كما فعل مع صاحب ثورة الزنج، لما ارتكبته ثورته من القتل والسلب والسبي، والإمام بطبيعة الحال كان يرفض هذه الأعمال، لكنه آثر الصمت كي لا يعتبر تصريحه تأييدًا ضمنيًا للدولة العباسية، ولا يخفى أن هذه الثورة وغيرها كانت تضعف الدولة، وبالتالي من أَبْدَهِ نتائجها تخفيف الضغط على جبهة الإمام العسكري (عليه السلام).

د - العسكريان (ع) والتمهيد لغيبة المهدي (عج)

أولا: معنى الغيبة

الغيبة: البعد والتواري، ويقال أوحشتني غيبة فلان([17]).

الغيب يعني الخفاء، ما وراء الستار، أي الشيء الذي غاب عن حواسنا وخرج عن دائرة الإدراك الحسي([18]).

وغيبة الإمام المهدي (عج الله فرَجَه) تأتي بهذا المعنى، أي تواري الإمام (عليه السلام) عن المشاهدة والظهور، بمقتضى الأمر الإلهي، حيث لا ظهور إلا بعد أن يأذن المولى تعالى ليقيم دولة الله في الأرض، ومسألة المهدي (عجل الله فرَجَه) في الإسلام - وخاصة عند الشيعة - هي الإنقاذ المرتقب على مستوى البشرية جمعاء والعروج بها على سلّم الرقي والصلاح والأمن.

إن مهمةً على هذا المستوى من الأهمية، تناط بها عملية تغيير واسعة، تحتاج إلى مزيد من التهيئة والإعداد على كافة المستويات سواء النفسية والمادية والاجتماعية،..."حيث إنها حادث قليل النظير في تاريخ البشرية، ويحتوي إلى حد كبير على عنصر غيبي خارج عن حدود المحسوس والمعتاد"([19]).

ثانيًا: التمهيد للغيبة

... " إن الإمامين العسكريين (عليهما السلام) يعلمان بكل وضوح تعلّق الإرادة الإلهية الأزلية بغيبة ولدهما، لأجل أن يكون مذخورًا لإقامة دولة الحق وتطبيق العدل الإسلامي على الإنسانية والأخذ بيد المستضعفين في الأرض.. يبدّل خوفهم أمنًا، يعبدون الله لا يشركون به شيئا"([20]).

الأمر الذي يظهر حجم المسؤولية الملقاة على عاتق الإمامين العسكريين (عليهما السلام) في التمهيد لغيبة ولدهما، وتحضير الذهنية العامة لدى قواعدهما، وخاصة لدى خواص الموالين والأصحاب، والتخطيط للأمر وإحاطته بالكتمان والقدسية الكبيرين.

وكانا (عليهما السلام) يعلمان أن عليهما القيام بجهد مضاعف خاصة في مجتمع سوادُه الأعظم متكوّن من عناصر مشدودة إلى انحراف مزمن وثقيل، ولكنهما (عليهما السلام) كانا يعلقان الآمال على مسبقات ذهنية، وقاعدة فكرية - لموضوع غياب المهدي (عجل الله فرَجَه) - أرساها الخلف من الأئمة (عليهم السلام) عمن سبقهم وصولاً إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهذا ما هيأ الأرضية الصالحة للسير بالفكرة، والتي تشكّل بحد ذاتها - ولمجرد ذكرها - صدمة إيمانية لأفراد المجتمع الإسلامي، فالأمر بحاجة إلى مؤونة زائدة وقوة من الإرادة والعزيمة.

إذًا هي فكرة معقدة، بحاجة لترويضٍ وإفهام هادئين خاصة لتوقفها على موقفين وطريقتين متقابلتين في العمل:

- سلبية، تتمثّل في التعاطي مع الدولة والأجهزة المتسلّطة، وذلك بإخفاء الفكرة وإبعاد خطر ملاحقتها وتصفيتها.

- إيجابية، متمثّلة بإبلاغ الفكرة للأجيال، وأسلوب الإعلان عن ولادة الإمام الحجة (عجل الله فَرَجَه)، وبالتالي الإيمان بوجوده.

وغالبًا ما كان يقتضي أمر الإبلاغ والإعلام الإبهام والغموض حتى يصل الأمر إلى عدم حليّة ذكر اسمه (عجل الله فرَجَه) حرصًا على عدم تسرّبه إلى الجهاز الحاكم.

فقد وردت عن الإمام الهادي (عليه السلام) أحاديث عديدة بهذا الصدد:

منها: (ومن بعدي الحسن ابني، فكيف للناس بالخلف من بعده، قال الراوي: فقلت: وكيف ذلك يا مولاي؟ قال: لأنه لا يُرى شخصه ولا يحلّ ذكر اسمه حتى يخرج فيملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما مُلئت جورًا وظلمًا).

ومنها: قوله (عليه السلام): (فأنّى لكم بالخلف بعد الخلف)([21]).

فالغموض والإبهام هنا ضروريان لمصلحة الإمام (عجل الله فرَجَه) حتى عن الخواص، فالمقتضى هنا هو الإيمان به وبوجوده وهو الثاني بعد الهادي (عليه السلام) وهو معنى (الخلف بعد الخلف).

وليقين إمامينا العسكريين (عليهما السلام) باختلاف الصبر والصمود عند مواليهم أمام عوامل التهويل والترهيب من الجهاز الحاكم، فقد استدعى ذلك منهما (عليهما السلام) الحذر في شمول الشرح وإيضاح الأمر أكثر، حفاظًا على المهدي (عجل الله فرَجَه)، وضمانًا لبقائه بعيدًا عن عيون السلطة وحفظًا لمواليهما وخاصتهما من خطر ما قد يترتب عليهم من ضعف تحمّل ضغوط تلك الأجهزة من إغراءات وتهديد، وبالتالي تسريب بعض المعلومات عنه (عجل الله فرَجَه) مما قد يسهّل أمر ملاحقته واعتقاله (عجل الله فرَجَه)... مع علمنا ويقيننا المطلق باستحالة ذلك بحقه (عجل الله فرَجَه)، لرعاية المولى له، وحفظه من كل سوء مذخورًا بتأييد إلهي لليوم الموعود، وللدور الذي سيقوم به (عجل الله فرَجَه) لبناء الإنسانية وقيادة الحكومة الإلهية العالمية، ولكن أبى الله سبحانه إلا أن تجري الأمور بأسبابها.

كما اقتضت الحكمة بإخفائه، ومنع ذكره علنًا حتى على كثير من الموالين، لما يخشى عليهم، وهذا ينسجم مع دور الأئمة (عليهم السلام) جميعًا في مسألة الحفاظ على شيعتهم ورعايتهم الدائمة لهم من كل بؤس وشرّ، ودفعًا لأي عدوّ متربص بالرسالة وأنصارها.

.. هذا، وقد اتخذ الإمامان العسكريان (عليهما السلام) موقفًا يمهّد للغيبة من خلال احتجابهما عن الناس إلا عن الخواص، وكانت تتمّ عملية التواصل مع الأمة عن طريق المراسلة والمكاتبة للإجابة على كافة الاستفسارات والتساؤلات.

ولا يخفى ما لهذه العملية من أهمية بالغة وإيجابية متقدّمة.

وخاصة أخذ واستلام الأحكام الشرعية من غير المعصوم مباشرة، وبذلك تتم عملية التمهيد لعمل المرجعية أيضًا في الأمة الوسط.

خاتمة البحث

لم يكن مقصودنا من هذا البحث المتواضع العرض الموسّع لتجربة إمامينا العسكريين (عليهما السلام)، لكننا أردنا في هذه العجالة الإضاءة على بعض مرتكزات العمل الديني والسياسي والاجتماعي لديهما (عليهما السلام) وإبراز ما قاما به تجاه الفكر الشيعي عبر التاريخ من إيجابيات كبيرة في رسم السبل أمام التابعين بشكل متقدّم، وهما (عليهما السلام) استطاعا خوض غمار تجربتهما كجزء من التجربة العامة المتسلسلة من بدايتها في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله) وصولاً إليهما باعتبارهما حلقات الوصل لعصر ما قبلهما وما تلاهما حتى خروج القائم (عجل الله فرَجَه) تمهيدًا مباركًا لقيام العدالة العالمية وبناء مرتكزات قيامها، لا بل والتأثير المباشر في بلورتها.

وكان البعض يرى في التشيّع ظاهرة طارئة في المجتمع الإسلامي أفرزتها الأحداث وردّات الفعل المتعاقبة عبر التاريخ، بداية من يوم السقيفة وإقصاء الإمام علي (عليه السلام) عن دوره، مرورًا بواقعة كربلاء، وصولاً إلى ما قام به آل مروان وبنو العباس من ظلم وقتل بحق أئمة الهدى (عليهم السلام) والعترة الطاهرة.

... "حتى بلغ البعض توصيف الإسلام اللاشيعي وإعطائه صفة الأصالة على أساس الكثرة والانتشار، والإسلام الشيعي صفة الظاهرة الطارئة ومفهوم الانشقاق"([22]).

إن قراءة عادلة في ما قام به أهل البيت (عليهم السلام) في الحفاظ على التجربة الرسولية الرائدة وتتميم دورها في نشر الرسالة وأحكامها وكشف اعوجاج وفساد السلطات الجائرة وإظهار ألاعيبهم وبطانتهم وبيان كذب وسوء سيرتهم وعلانيتهم للقاصي والداني، توضّح كيف أن هذا الفكر الرسالي الأصيل قد وضع حدًا للوضّاعين وصدّ مدارس الاجتهاد في مقابل النص، وأغنى الحضارة والحياة بمفاهيم العلم الجامع الشامل، وصولاً إلى تهيئة القاعدة الجماهيرية وشحنها بمؤونة ثورية رافضة لواقع ديني مأزوم، حتى شكّلت هذه التعبئة نواة العمل الرافض والثائر على الحكام والملوك، وبأشكال متنوّعة وأساليب مختلفة.

وقد شكّلت غيبة الإمام المهدي (عجل الله فرَجَه) الظاهرة والحدث الأبرز في حياة الإمامين العسكريين (عليهما السلام) فأعدّا لها وقاما بتهيئةِ ذهنيةِ القاعدة الرسالية لتقبّلها، والتعايش معها، والتعبّد بالانتظار الفاعل والمؤثر والمؤسس لدولة الإمام (عجل الله فرَجَه).

فعن الباقر (عليه السلام): (يخرج بعد غيبة وحيرة، لا يثبت فيها على دينه إلا المخلصون، المباشرون لروح اليقين، الذين أخذ الله ميثاقهم بولايتنا، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه)([23]).

وعن الرسول (صلى الله عليه وآله): (أفضل أعمال أمتي، انتظار الفرج)([24]).

ولا يخفى على ذي لبّ مدى الاطمئنان الذي تبعثه مثل هذه الأحاديث في ذات المنتظِر المؤمن بالإمداد الغيبي القادم عبر المُخلِّص مما يشعر بوجود مستقبل يرى فيه قيام دولة الحق وزهوق دولة الباطل، فيصدق الله وعده لعباده الصابرين المنتظرين.

{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}([25]).

{وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}([26]).

انتهى

---

[1] - تاريخ الغيبة الصغرى، محمد الصدر، ص 26، دار التعارف، ط 1982.

[2] - المصدر السابق، ص26.

[3] - المصدر نفسه، ص20 -21.

[4] - المروج: 3/465؛ الكامل في التاريخ: 5/236.

[5] - الكامل في التاريخ: 5/333؛ تاريخ الغيبة الصغرى، محمد الصدر، ص61.

[6] - الكامل في التاريخ: 5/321؛ تاريخ الغيبة الصغرى، محمد الصدر، ص61-62.

[7] - تاريخ الإسلام، د.حسن إبراهيم حسن: 3/210، مكتبة النهضة المصرية 1964.

[8] - المصدر السابق: 3/209.

[9] - الأئمة الاثنا عشر، عادل الأديب، ص235، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات 1985م.

[10]- المصدر السابق، ص227.

[11]- أهل البيت (ع) تنوّع وأدوار ووحدة هدف، محمد باقر الصدر، ص142، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

[12]- المناقب: 3/507.

[13]- انظر: الاحتجاج:2/251-260.

[14]- أهل البيت (ع) تنوّع وأدوار ووحدة هدف، محمد باقر الصدر، ص148.

[15]- تاريخ الغيبة الصغرى، محمد الصدر، ص207.

[16]- بحث حول الولاية، محمد باقر الصدر، ص96.

[17]- المعجم الوسيط في اللغة العربية: 2/667، باب غاب، طبعة المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، تركيا، اسطنبول 1960م.

[18]- نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ، مرتضى مطهري، ص57، دار التوجيه 1980.

[19]- تاريخ الغيبة الصغرى، محمد الصدر، ص211.

[20]- المصدر السابق، ص209.

[21]- المصدر نفسه، ص162.

[22] - بحث حول الولاية، محمد باقر الصدر، ص11.

[23] - يوم الخلاص، كامل سليمان، ص184، دار الكتاب اللبناني 1982.

[24] - المصدر السابق، ص191.

[25] - الأنبياء105.

[26] - القصص5.

علاج النصوص المخالفة للعقل

المرجع الديني الشيخ محمد تقي الفقيه (قده)

علاج النصوص المخالفة للعقل([1])

المرجع الديني الشيخ محمد تقي الفقيه (قدس سره)

يوجد في القرآن الكريم، والسُّنة النبويّة، آيات وأحاديث مخالفة بظاهرها لحكم العقل، وهي نوعان:

النوع الأول

وهو على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الآيات والأحاديث الظاهرة في تجسيم الصانع وتحديده.

الصنف الثاني: الآيات والأحاديث الظاهرة في كون الإنسان غير مختار في أفعاله.

الصنف الثالث: الآيات والأحاديث الظاهرة في صدور الذنوب والمعاصي من الأنبياء.

ولا ريب عند الشيعة والمعتزلة، وجميع علماء المسلمين المحققين من سائر أهل المذاهب الإسلامية في تنزيه الصانع عن الجسمانية، وفي عدم جَبر الإنسان في أفعاله جبرًا يُخرجه عن نطاق الاختيار، وفي عصمة الأنبياء.

وبعد هذا: فهل يجب أو يجوز لنا أن نعمل بهذه الظواهر، وأن نعتقد بما نفهمه منها؟
وكيف يصحّ لنا ذلك مع إنكار العقول السليمة له؟
وما معنى ما اشتهر عند الفقهاء من أن كُلّ ما حكم به الشرع حكم به العقل ولا عكس؟
وما هو المقصود من تلك الآيات والأحاديث؟

الجواب الإجمالي عن ذلك:

هو أن كل ما ورد من هذا النوع، يجب تأويله، و إرجاعه إلى جهة يقبلها العقل، وتساعد عليه قواعد الاستظهار، ولا يجوز الاعتقاد بهذه الظواهر، ولا الاستسلام لها، لأن الشرايع السماوية نفسها لا ترضى بذلك لأمور كثيرة:

منها: النصوص الكثيرة المخالفة لهذه الظواهر، وهي بعد وضوحها وظهورها واعتضادها بحكم العقل، تكون هي المعتمدة.

ومنها: أن الشريعة في أصولها الأوّلية، تعتمد على العقل، وتستند إليه، فكيف يمكن أن يكون فيها ما يخالفه! فإن العقل هو المدخل الأول، الذي نَلِج منه لمعرفة الله سبحانه، ولمعرفة وجه الحاجة إلى الأنبياء، ولمعرفة وجوب عصمتهم، ولوجوب تصديقهم والعمل بأوامرهم ونواهيهم، ولولا استقلال العقل بذلك كله، لاستحال علينا الاقتناع والإقناع بهذه الأمور عن طريق السّمع، لما في ذلك من الدّور الواضح، الذي يُدركه كل من أوتي قليلاً من العلم والمعرفة والإدراك.

هذا مضافاً إلى النصوص الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) الدالة على أن العقل يسير مع الشريعة والشريعة تسير معه.

ومنها: (أول ما خلق الله العقل ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فقال سبحانه: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقًا أحبّ إليَّ منك، بك أثيب وبك أعاقبَ!)([2]).

ومنها: ما ورد عن الإمام الكاظم (عليه السلام)، وفيه: (إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة (عليهم السلام)، وأما الباطنة فالعقول)([3])، فالحجة من داخل هي العقل، والحجة من خارج هو الرسول، فالعقل رسول داخلي، والرسول عقل خارجي.

وأما الجواب التفصيلي، فستعرفه فيما يأتي إنشاء الله تعالى.

النوع الثاني

الأخبار المروية في كتب الحديث، وكتب الفضائل، وقصص الأنبياء، والمُرغّبات، والمُخوّفات، ولا سيّما المروي منها في الكتب التي يؤلّفها السذّج والبسطاء من المؤمنين المتشبهين بالعلماء، فإن فيها من المبالغات والأمور البعيدة عن الوقوع ما لا يحصى، وقد يوجد شيء من ذلك في الكتب التي صنّفها المحققون الأثبات.

نظير ما ورد في وصف سدّ يأجوج ومأجوج، وأنهم ما زالوا يَلحسونه بألسنتهم كل ليلة حتى يُصبح بحجم الورق، فإذا أعيوا قالوا: نتمّه صباحًا، فإذا ناموا وأصبحوا عاد كما كان([4]).

ومنها: أن أحدهم يفترش بإحدى أُذنيه ويلتحف بالأخرى([5]).

ومنها: القصص المتعلقة بـ(عوج بن عناق)([6]).

ومنها: ما وقع على أيدي الأولياء من الأمور العجيبة الغريبة إلى غير ذلك مما لا يحصيه أمثالنا.

فهل يجب علينا التصديق بذلك أو لا؟

والجواب: لا يجب التصديق، لأن هذه الأخبار كلها أخبار آحاد([7]) وهي ظنية السند، وهذا الصنف إذا كان مخالفاً لحكم العقل، لا يجوز الاعتماد عليه، ولا الركون إليه، وإن كان رواته من الثقات، فضلاً عما إذا كانوا من المجاهيل والضعفاء، فكيف إذا كان رواته كلهم من المجاهيل أو كان من المراسيل، وذلك لأن الدليل الدال على حجية خبر الواحد الموثوق به، مختص بخبر الواحد المتعلق بالأحكام الشرعية، كما هو المعروف في كتب الأصول، وأما أخبار الآحاد المتعلقة بأصول الدين وشؤونها وأخبار الآحاد المتعلقة بالموضوعات فهي باقية على أصالة عدم الحجية، وتبقى داخلة في عموم الآيات الكريمة، الناهية عن العمل بالظن، كقوله تعالى **{وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}** ([8])، وكقوله تعالى **{إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ}**([9])، وكقوله تعالى **{وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً}**([10]).

ولا ريب أن خبر الواحد ليس علمًا، فيدخل في المنهي عنه بقوله تعالى **{وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}**، ولا ريب أنه ظن، فيدخل في اتّباع الظن المذموم في قوله تعالى **{إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ}**، وأوضح من ذلك كله أنه سبحانه جعل الظن مقابلاً للحقّ في قوله **{وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً}**، ولا ريب أن ما يقابل الحق هو الباطل.

ويتحصّل من ذلك كله، أن اتباع الظن إذا لم يقم على حجيّته دليل خاص، يكون العمل به منهيًا عنه، ويكون العامل به مذمومًا، ويكون العمل به من الباطل، هذا كله بالنسبة للأخبار.

وهذا كله بخلاف الآيات الكريمة، والأحاديث المتواترة، التي هي في معناها، فإنه يجب قبولها والاعتناء بها، وأخذها بعين الاعتبار، لأن القرآن الكريم مقطوع الصدور، والمتواتر مثله، فهما إذن شيء ثابت عن الله وعن رسوله، ومن أجل ذلك وعلى حسابه أسهبنا في هذا الموضوع، وسيتضح الحال فيه فيما يأتي إنشاء الله تعالى.

ويجب أن يعرف القارئ أن المتواتر المخالف لحكم العقل قليل الوجود، حتى إننا لا نكاد نعرف له مثلاً فيما نحن فيه. وإنما هو مجرد فرض.

قاعدة

كل ما حكم به الشرع حكم به العقل، ولا عكس

هذه القاعدة مشهورة بين الأصوليين والفقهاء، وهي قاعدة صحيحة، غير أنها مفتقرة إلى التوضيح، فنقول:

العقل له أحكام يستقل فيها، تسمّى "المستقلات العقلية"، بعضها يرتبط بالدين، وبعضها لا علقة للدين به.

أما ما لا علقة للدين به، فهو مثل حكم العقل بأن الكل أعظم من الجزء، وبأن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان... وما أشبه ذلك، وعدم ارتباطها بالدين واضح.

وأما ما له علاقة بالدين، فهو مثل حكمه بوجود الصانع، وبالحاجة إلى الأنبياء، وبوجوب عصمتهم، وبوجوب إطاعة أوامرهم ونواهيهم، وما أشبه ذلك، فإن هذه الأمور كلها من المستقلات العقلية، وهي أساس الأديان، ولا يمكن إثباتها من طريق السمع إلا على وجه دائرٍ.

فإذا ورد الأمر بها في الشرع، كان أمرًا بما أمر به العقل، ولكن أمر الشارع بها يكون أمرًا إرشاديًا لا مولويًا، ومعنى ذلك أن الشارع يرشد المخاطبين إلى العمل بما حكم به العقل، ولا يمكن أن يكون مولوياً إلا على وجه دائر، كما هو واضح عند أهل العلم.

ومن ذلك قوله تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}**([11]).

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}([12])،

وقول تعالى: **{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}**([13]).

وإنما كانت هذه الأوامر إرشادية، لأننا قبل الإيمان بالله ورسوله، وقبل الاعتقاد بعصمة الأنبياء ووجوب إطاعتهم، لا نستطيع التصديق بأن هذا الكلام صادر عن الله سبحانه، لأن الاعتقاد بصدوره عنه متوقّف على الاعتراف بذلك كله بالضرورة,

وقد ظهر من هذا معنى قولهم (ولا عكس)، الراجع إلى قولنا: (وليس كل ما حكم به العقل حكم به الشرع).

هذا كله بالنسبة للأحكام العقلية.

وأما الأحكام الشرعية، فإنها بيد الشارع رفعًا ووضعًا، لا يشاركه في ذلك غيره، والعقل نفسه لا يتدخّل فيها، لأنها ليست من شؤونه ولا من صلاحياته.

غاية الأمر، أن العقل هو الذي يلزم المخاطبين بها بإطاعتها، وبهذا اللحاظ يصح أن نقول: كل ما حكم به الشرع حكم به العقل، ويكون المقصود من حكم العقل به متابعته له فيما حكم به، وليس المقصود منه أن العقل يحكم على ذات الموضوع بحكم مماثل لحكم الشرع.

ولا يخفى أن العقل إنما يتبع الشرع إذا كان ما حكم به الشرع لا يناقض حكم العقل، فلو فرض -محالاً- أن الشرع حكم بحكم يُناقض حكم العقل لم يحكم العقل بوجوب اتّباعه لأنه يكون قد خالف نفسه، ومن المعلوم أن أحكام العقل دائماً تكون مبيّنة لا إجمال فيها ولا خفاء، لأنه لا يحكم إلا بعد إدراك مناطات حكمه إدراكًا كاملاً، ومن المعلوم أيضًا أن الشريعة لا تحكم بحكمٍ يناقض حكم العقل.

وبهذا اللحاظ، كان العقل واحدًا من الأدلة الأربعة، ولا يخفى أن جميع الأحكام الشرعية المعروفة ليس للعقل حكم واضح على خلافها، والناس عندما لا يدركون الحكمة منها، ولا يجدون من يُقنعهم، يسمّونها مخالفة للعقل، مثل ترخيص الرجل في الزواج بأكثر من واحدة، ومثل توريث الذكر أكثر من الأنثى في أكثر موارد الإرث.

ولكن هذا لا يسمّى مخالفاً لحكم العقل، لأن العقل ليس له في هذه الأمور أحكام يستقل فيها، نعم هي أحكام لم يُدرك شطر من العقلاء وجه الحكمة فيها، ولكن المحققين قد أدركوا لها حِكَمًا كثيرة، وقد استعرضنا شطرًا منها في كتاب فلسفة التشريع الإسلامي الذي هو جزء من كتابنا (حجر وطين).

ثم إن الشرع والعقل متفقان على اشتراط القدرة في التكليف، ولذا جعلها الفقهاء من الشروط العامة له، ويتفرّع على ذلك اشتراط كون المخاطب بالتكليف قادرًا، واشتراط كون ما خوطب به مقدورًا، بمعنى كونه ممكناً، وذلك لاستحالة توجّه إرادة العاقل إلى تحصيل الممتنع بالذات أو بالعرض، ولقبح تكليف العاجز.

(دلالة الألفاظ على معانيها ظنية)

إذا عرفت هذا فاعلم، أن دلالة الألفاظ الواردة في الجمل الكلامية على معانيها كلها ظنيّة، ما عدا النص (ويقصد به ما لا يحتمل الخلاف)، والنص قليل الوجود، بل أنكره المحققون حتى بالنسبة للأعلام الشخصية، وذلك لكثرة المجاز والحذف والاستعارات في اللغة العربية.

فإذا قال القائل: أمر الملك ببناء مدرسة، كان ظاهرًا في صدور هذا الأمر من الملك نفسه، ولكن هذا الظهور لا يوجب الجزم اليقيني بذلك في نظر العقلاء، ولا سيما بعد كثرة تقرير الوزراء والخبراء وتخطيطهم بالنسبة للأمور المعهود بها إليهم ونسبتها للملك، هذا مضافاً إلى أن الظهور بطبعه لا يفيد أكثر من الظن، لأن السامع يحتمل أن يكون الكلام مبنيًّا على حذف مضاف، تقديره: أمر وزير الملك، أو زوجته، أو من فوّض ذلك إليه، ولذا قال النحويون: إذا قال القائل: جاء زيد، احتمل السامع أن يكون الجائي عبده أو رسوله، فإذا أكّده بالنفس، وقال: جاء زيد نفسه، دلّ على أن الجائي هو نفسه، لا عبده ولا رسوله، وهذه أمور مفروغ عنها عند العارفين بأساليب اللغة، فضلاً عن المتخصصين بها، المحيطين بأسرارها.

حكم الظاهر المخالف للعقل

بعد هذا كله نعود لما نحن بصدده، ونقول:

لا ريب في ظهور الألفاظ بدوًا في معانيها التي وضعت لها، ولا ريب أن هذا الظهور لا يفيد أكثر من الظن، ولا ريب في استقرار طريقة العقلاء على الالتزام به، والعمل بمقتضاه، ولا ريب أن الشارع قد أقرّهم على ذلك.

وإذا كان الدليل الذي دلّ على حجية ظاهر الأدلة الشرعية، هو استقرار طريقة العقلاء على الأخذ بظواهر الكلام، وتقرير الشارع لهم، وجب علينـا -قبل كل شيء- أن نعود لطريقة العقلاء، ونأخذ بما يأخذون به من تلك الظواهر، ونُعرض عمَا أعرضوا عنه.

ولا ريب أن العقلاء لا يرتّبون آثار تلك الظواهر، ولا يأخذون بها إذا كانت غير معقولة.

وعلى هذا الضوء، يتأوّل جميع المفسرين، ويتبعهم العلماء والعقلاء وأرباب اللغة العربية، قوله تعالى: **{وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}**([14])، ويقولون: المراد من القرية، بمقتضى دلالة الاقتضاء([15]): أهلها مجازًا، بعلاقة الحال والمحل، والمراد من العير أصحابها مجازًا بعلاقة المالك والمملوك، أو أن الكلام فيهما مبني على حذف مضاف تقديره: واسأل أهل القرية وأصحاب العير.

وذلك، لأن حكم العقل بعدم قابليتهما للسؤال والجواب، يكون قرينة على أنهم لا يريدون سؤال نفس القرية ونفس العير، وبعد كونهم في مقام الاستشهاد على صحة دعواهم، فلا بد أن يكونوا قد أرادوا ما يصلح للشهادة، وليس هو في مثل المقام إلا أهل القرية وأصحاب العير.

وقد تحصّل من هذا:

أن كلام الحكيم يحمل على ظاهره، ما لم يقترن بقرينة عقلية([16]) أو لفظية، أو مقامية، تدل على خلاف ذلك الظاهر، فإنه حينئذٍ يجب رفع اليد عن ذلك الظاهر.

ثم: إذا (كان هناك قرينة على خلاف الظاهر)، و كان ثمّة قرينة أخرى تعيّن المراد، تعيّن، وإلا كان الكلام مُجملاً، لتعدد المعاني المجازية، وعدم قيام قرينة على تعيين إحداها.

والقول بتعيّن أقرب المجازات للمعنى الحقيقي، لا دليل عليه، لأن المدار على الظهور، والأقربية لا توجب الظهور، لأن الظهور نتيجة حاصلة من كثرة استعمال اللفظ في المعنى كثرةً توجب فهم المخاطبين أو السامعين منه ذلك المعنى بمجرد سماعه.

وبعبارة ثانية: كثرةً توجب أنس اللفظ بالمعنى وأنس المعنى باللفظ، حتى يصبحا كأنهما شيء (واحد)، ومن أجل ذلك يسري قبح المعنى وحسنه إلى اللفظ، كما هو المشاهد المحسوس، فلفظ "وَرْد" حسن، لأنه اسمٌ لشيء حسن، ولفظ "القذر" قذرٌ لأنه اسم لذات القذَر.

ثم لا يخفى أن القرينة الصارفة عن المعنى الحقيقي تسمى قرينة معاندة، وإذا فُهم منها المقصود كانت معيِّنة أيضًا، وإذا فهم من غيرها سمّي ذلك الغير قرينة معيِّنة، فالمجاز بطبعه ملزوم لقرينتين، إحداهما معاندة، وهي لازم غير مفارق، والأخرى معيِّنة وهي لازم مفارق، ومن ثمّ قال علماء البيان: المجاز ملزوم لقرينتين: صارفة ومعيِّنة، وقد تقوم قرينة واحدة بكلا الأمرين.

ومما لا ريب فيه عندهم، أن القرينة العقلية أقوى في الصارفية من غيرها، لأن القرينة العقلية بمنزلة النص في الوضوح والجلاء، بخلاف القرينة الكلامية والمقامية، لأنهما لا تخلوان من احتمال الخلاف.

ثم إنه لو فرض تساوي الظهورين في القرينة وذيها، كان الكلام مجملاً، لأن المقصود من الكلام حينئذٍ غير واضح بنظر أهل المحاورة.

وقد قالوا: لا ينعقد للكلام ظهور ما دام المتكلّم متشاغلاً بالكلام، كل ذلك مراعاةً لاحتمال إتمام كلامه بكلام يكون قرينة دالة على خلاف ما يظهر من أوائل كلامه.

ألا ترى: إلى ظهور قول الملاّك للفلاح: اقطع كل شجرة في البستان في إلزامه بقطع جميع ما فيه من الشجر، ولكن الفلاح إذا كان يعلم بأن مقصود المتكلم المحافظة على الشجر المثمر لشدّة اعتناء الملاّك فيه ومحافظته عليه، لم يجز له قطع الشجر المثمر! ولا الاحتجاج بقوله الأول (اقطع كل شجرة)، ومثل هذه القرينة تسمى قرينة مقامية، وتسمّى لبيّة أيضًا.

وأما إذا قال: اقطع كل شجرة في البستان لأنها مضرّة بغيرها، فإن هذا الكلام يكون قرينة لفظية.

ومن هذا المثال يتضح لك: فعالية القرائن، في تطوير ظواهر الكلام، وتغيير اتجاهاته.

(نتيجة البحث)

إذا عرفت هذا، عرفت: أنه عندما يقوم الدليل العقلي على شيء، ويكون ظاهر الدليل اللفظي السمعي على خلافه، يكون الدليل العقلي قرينةً على عدم إرادة ظاهر الدليل اللفظي، وحينئذٍ فإن ثبت له ظاهر آخر معقول تساعد عليه قواعد اللغة، وتشهد له ملابسات الكلام، على وجه يستقرّ له ظهور بنظر أهل المحاورة، حمل ذلك عليه، وعُمل به، وإلا كان مجملاً يجب الوقوف عنده.

انتهى

---

[1] - البحث في هذا الموضوع والسؤال عنه يجول كثيرًا في أندية العوام والخواص، ويكثر فيه القيل والقال، وقد عالجتُ هذا الموضوع كتابةً في مسودات تبلغ اثنتي عشرة صحيفة في رجب سنة 1388هـ، وذلك عندما كنت مُتشرّفًا بزيارة مرقد الإمام الرضا (عليه السلام) في خراسان، فدوّنت شطرًا منه في 22 رجب فيها (أي خراسان)، وأتممته في طهران يوم الجمعة 25 منه 1388هـ، وفي صفر 1402هـ عدت إلى هذه الأوراق ونقلتها إلى هذه الكرّاسة، وقد قدّمت وأخّرت حذفت وزدت كما هي عادتي بالنسبة إلى كل مبيضة ومسودة (منه قدس سره).

[2] - بحار الأنوار، العلامة المجلسي: 1/97، ح8 و 9 باب حقيقة العقل وكيفيته وبدو خلقه.

[3] - المصدر السابق: 1/137، ح30، من وصية الإمام الكاظم لهشام بن الحكم وصفته للعقل، وهو حديث طويل.

[4] - البداية والنهاية، ابن كثير (774هـ)، ط1، 1408هـ، دار إحياء التراث العربي: 2/133.

[5] - الدر المنثور،جلال الدين السيوطي (ت911هـ): 4/250، ط1، 1365هـ، دار المعرفة. قصص الأنبياء، الجزائري (ت1112هـ): ص191

[6] - حيث قالوا أنه كان -لفرط طوله- يرفع السمك في عين الشمس ليشويه بحرارتها. انظر بحار الأنوار: 11/244.

[7] - اعلم أن المراد بأخبار الآحاد، كل خبر غير متواتر، وإن تعددت روايته ورواته، سواء أكانوا عدولاً أو غير عدول، وأن المراد بالمتواتر هو الخبر الذي يرويه جمع من الناس يُعتقد بعدم تواطئهم على الكذب، سواء أكانوا عدولاً ثقات أم لم يكونوا كذلك، إذا كان إخبارهم موجباً للاعتقاد بالمُخبَر به، فلو أخبر واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أكثر بخبرٍ يفيد القطع لا يُسمى متواتراً (منه قدس سره).

[8] - سورة الإسراء: من الآية36.

[9] - سورة النجم: من الآية23.

[10] - سورة النجم، الآية28.

[11] - سورة النساء: من الآية136.

[12] - سورة النساء: من الآية59.

[13] - سورة النجم: 3 - 4.

[14] - سورة يوسف، الآية82.

[15]- دلالة الاقتضاء، اصطلاح علمي يشير إلى ما ذكرناه، والمقصود منه هو حمل الكلام الذي يصدر من العقلاء ويتقبّله أمثالهم، على أمر معقول.

ولا يخفى أن البلغاء كانوا وما زالوا يتفاخرون بالإيجاز، وباستعمال المجازات والكنايات، والمبالغات المستملحة، وما نحن فيه منها، فكأن المتكلمين يقولون: نفس القرية والعير يشهدان بما نقول: مبالغةً في وضوح المشهود به، على معنى أنها لو كانت تعقل وتنطق لشهدت بذلك، فحذف المضاف، والتجوّز ليس مستحسنًا للاختصار فقط، بل لما يحمله من مبالغة المُدَّعي في وضوح دعواه (منه قدس سره).

[16]- القرينة العقلية هي عبارة عن أمر عقلي يمنع من الأخذ بالظاهر، كالمثال المتقدم حيث إنه يمتنع عقلاً أن تشهد القرية أو العير (التحرير).

القلب السليم

الشيخ أكرم جزيني

الشيخ أكرم جزيني

قال تعالى: {يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}([1]).

قيمة الإنسان

الإنسان ليس مجرد جسد يتحرك ويأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، بل حقيقة الإنسان هي تلك الروح أو تلك النفس التي اتخذت من الجسد قميصًا لها، تلبسه في دار الدنيا وتخلعه عند الموت، لتلتحق ببارئها الذي أبدعها.

وهذه الروح أو النفس والتي تشكل حقيقة الإنسان هي عبارة عن مجموعة من القوى والخصائص والملكات التي قد تسمو بها إلى المراتب العالية، فتجعلها أشرف من الملائكة أو تنحدر بها إلى مهاوي ودركات سحيقة، فتجعلها أخس من البهائم والأنعام.

فللإنسان قيمتان، الأولى: هي القيمة الظاهرية، ويدخل في تكوينها مظهره ومأكله ونسبه ومقامه الاجتماعي والشهادة التي يحملها، وكل ما يكون ظاهرًا أمام الناس... ويمكن أن نعبّر عنها بالقيمة التي تجري على ألسنة الناس من مدح أو ذم.

والثانية: هي القيمة الواقعية، وهي عبارة عن الخصائص والمزايا الواقعية التي تمتاز بها نفسه، من ملكات فاضلة أو رديئة، وأخلاق حسنة أو سيئة، وقرب من الله أو بعد عنه تبارك وتعالى، وقد تتطابق القيمتان، وذلك حين يكون الظاهر معبِّرًا ومنبئًا عن الواقع، وقد تتخالفان فيكون أحدهما على خلاف الآخر.

فمن خلال ما يجري على ألسنة الناس من مدح أو ذم تتشكل القيمة الظاهرية للشخص في أوساط مجتمعه وبيئته، بغض النظر عن مدى انسجام تلك القيمة الظاهرية مع القيمة الحقيقية والواقعية للإنسان، والتي يكون المحور فيها هو النية التي تقبع خلف كل تلك المظاهر والسلوكيات التي يحصيها الخالق جل وعلا كلمة بكلمة، وحرفًا بحرف، وحركة بحركة، ليجازي عليها يوم الجزاء {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}([2])، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ}([3]).

نظرة المجتمع

وَكَم كان المجتمع مجحفًا بحق أشخاص كانوا يستحقون كل ثناء وتقدير، ومندلقًا بالمدح والثناء على أشخاص لا يعادلون في ميزان الله جناح بعوضة أو حتى بعرة بعير!!

وهذا ناشئ من اختلاف المعايير الاجتماعية عن الواقعية من جهة، ومن تعامل الناس بحسب الظاهر من جهة أخرى، لأن النوايا والأسباب الكامنة خلف الأفعال والأقوال لا يعلمها إلا الخالق الذي يعلم السر وأخفى وهو أقرب إلينا من حبل الوريد.

ولذلك نجد أن الميزان الاجتماعي وإن كان يرفع أشخاصًا ويضع آخرين إلا أنه كثيرًا ما يكون مخطئًا، لما ذكرناه من اختلاف المعايير حيث نجد أنه قد أدرج في معاييره أمورًا شكلية اعتبرها قيمًا بالرغم من أنها ليس لها في ميزان الله أي قيمة أو اعتبار، كقيمة النسب، أو جمال الشكل، أو ضخامة الثروة، أو فخامة المسكن، أو أناقة الملبس و المركب.. وغيرها من المقتنيات..

القيمة الحقيقية

إن القيمة الحقيقية لكل إنسان - مهما كانت نظرة المجتمع إليه - نجدها تكمن في الأمور التي تصقل جوهره، لا التي تزين مظهره، والتي نجدها -حسبما نرى- محصورة في أمور أربعة لا خامس لها كما يفيدنا بذلك التدبر في كلمات الأئمة (ع)، والأمور الأربعة هي: اللسان، والفكر، والعمل، والقلب. فقد ورد عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال:

1- في اللسان: **(المرء مخبوء تحت طي لسانه، لا تحت طيلسانه).**

2 - في الفكر: **(قيمة كل امرئ ما يحسن).**

3 - في العمل: **(ثقلوا موازينكم بالعمل الصالح).**

4 - في القلب: **(إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها).**

مع ملاحظة أن التقييم اللساني في الأصل يندرج تحت التقييم العملي، باعتبار أن الكلام من الأعمال التي يقوم بها الإنسان، ولكن لمزيد خصوصية فيه، ولمزيد اهتمام من الشارع به كان قسمًا برأسه.

من شواهد التقييم

وللوقوف على شاهد من شواهد التقييم الحقيقي نقف عند مقطع من زيارة الإمام الصادق (ع) لجده أمير المؤمنين (ع) حيث يخاطبه فيه بقوله:

(... السلام عليك يا إمام ذوي الألباب، السلام عليك يا معدن الحكمة وفصل الخطاب، السلام عليك يا من عنده علم الكتاب، السلام عليك يا ميزان يوم الحساب، السلام عليك يا فاصل الحكم الناطق بالصواب، السلام عليك أيها المتصدق بالخاتم في المحراب، السلام عليك يا من كفى الله المؤمنين القتال به يوم الأحزاب، السلام عليك يا من أخلص لله الوحدانية وأناب، السلام عليك يا قاتل مرحب وقالع الباب، السلام عليك يا من دعاه خير الأنام للمبيت على فراشه فأسلم نفسه للمنية وأجاب، السلام عليك يا من له طوبى وحسن مآب...) ([4]).

ولو لاحظنا هذا الخطاب بفقراته الجليلة نجد مجموعة من الفضائل يذكرها الإمام الصادق (ع) تنتظم ضمن القيم الحقيقية الأربع التي أشرنا إليها.

فمعدن الحكمة - مثلاً - هو تقييم (فكري)، وفصل الخطاب تقييم (لساني)، و عنده علم الكتاب تقييم (فكري)، و فاصل الحكم تقييم (فكري)، و الناطق بالصواب تقييم (لساني)، و المخلص لله تقييم (قلبي)، و قاتل مرحب تقييم (عملي)، وقالع الباب تقييم (عملي)، و مسلِّم نفسه للمنية على الفراش تقييم (عملي)، ويصح كون الأخير تقييمًا قلبيًا، لأن التسليم لله من أعمال القلب.

التقييم في الميزان الإلهي

ولو طوينًا صفحًا عن معايير تقييم المجتمعات لأفرادها سواءً كانت معايير شكلية أم معايير حقيقية، وتوجهنا إلى صور التقييم أمام المحكمة الإلهية، لوجدنا أن كل القيم الظاهرية الشكلية تسقط؛ فتسقط قيمة النسب، وتسقط قيمة الجمال، وتسقط قيمة الثروة، وتسقط قيمة المأكل والملبس والمركب، وتسقط قيمة اللسان الجدلي البارع، وتسقط قيمة القوة البدنية التي يفخر بها بعض الناس، وهكذا سائر القيم العرضية التي ليس لها مدخلية في البناء الحقيقي للشخصية الإنسانية، فقد جاء في الحديث القدسي مخاطبًا النبي محمد (ص): يا محمد..

قل لمن افتخر بالوجه الحسن: **{تَلْفَحُ وُجُوْهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيْهَا كَالِحُونَ}**([5]).

وقل لمن افتخر بالفصاحة: **{اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِم وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيْهِم}**([6]).

وقل لمن افتخر بالمال والولد: **{يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ}**([7]).

وقل لمن افتخر بالحسب والنسب: **{فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُم يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ}**([8]).

وقل لمن افتخر بالقوة: **{عَلَيهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ}** ([9]).

وقل لمن افتخر بالملك: **{لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارُ}** ([10]).

هذا هو حال القيم الشكلية، أما القيم الحقيقية التي سلف ذكرها، فهي أيضًا أمام المحكمة الإلهية مرتهنة لبعضها البعض، فنلاحظ:

أولاً: قيمة اللسان مرتهنة للتوجه القلبي: فمهما كان اللسان بليغًا في الحياة الدنيا، وداعيًا إلى الله، وآمرًا بالمعروف، وناهيًا عن المنكر، إن لم يكن منسجمًا مع القلب فإنه يوم القيامة سيصبح أبكمَ، فإن اللسان وإن كان في الدنيا هو العضو الوحيد الذي يتكلم، وباقي الأعضاء صامتة، إلا أنه يوم القيامة سوف يصمت، والأعضاء تتكلم **{اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}**([11]).

فالكلام المعسول الذي يغدقه المتزلفون ويتسترون به على قلوبهم المظلمة الحاقدة لا خير فيه ولا في أصحابه، كما في الشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين (ع):

لا خيرَ في ودِّ امرئٍ متَمَلِّقٍ	حُلوِ اللِّسَانِ وقلبُه يتلهَّبُ
يلقَاك يحلِفُ إنَّـهُ بـك واثـــقٌ	وإذا تــوارى عنـك فهـو العقـربُ
يُعطيك من طرفِ اللِّسان حلاوةً	ويروغُ منك كما يروغ الثعلبُ

ثانيًا: قيمة الفكر والعلم مرتهنة للتوجه القلبي: فمهما كان الفكر ثاقبًا، وقادرًا على استحضار المخزون الفكري، و الربط بين الحقائق، واستخلاص النتائج، فإنه سيصبح يوم القيامة كليلاً إن لم يكن متجانسًا مع القلب في تسليمه..

فالمكر، والخداع، والغدر - مثلاً - هي أساليب فكرية، إلا أنها تندرج تحت عنوان الشيطنة، كما يشهد بذلك جواب الإمام الصادق (ع) لمن سأله عن العقل، فقال (ع): **(ما عُبد به الرحمن، واكتُسب به الجنان)**.

فقيل له: والذي كان في معاوية؟ فقال (ع): **(تلك النكراء تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل)** ([12]).

كما أن العلم الذي يرفد الفكر في نشاطه، إن لم يُقرن بصدق النية، وصفاء السريرة، فلا خير فيه ولا في حامله، فعن رسول الله (ص) أنه قال: من طلب العلم لله لم يصب منه بابًا إلا ازداد به في نفسه ذلاً، وفي الناس تواضعًا، ولله خوفًا، وفى الدين اجتهادًا، وذلك الذي ينتفع بالعلم فليتعلمه.

ومن طلب العلم للدنيا، والمنزلة عند الناس، والحظوة عند السلطان لم يصب منه بابًا إلا ازداد في نفسه عظمة، وعلى الناس استطالة، وبالله اغترارًا، ومن الدين جفاءً، فذلك الذي لا ينتفع بالعلم، فليكف وليمسك عن الحجة على نفسه، والندامة والخزي يوم القيامة **([13])**.

وقد قيل: (لو كان العلم بغير التقى شرفًا لكان أشرف خلق الله إبليس)!!

فما نفع علم إبليس بربوبية الله وخالقيته عندما يقول **{خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}** وقلبه مضمر للمعصية؟!! وما نفع إيمانه بالأنبياء عندما يقول: **{إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}** وقلبه مضمر العداء لهم؟!! وما نفع إيمانه بيوم القيامة عندما يقول: **{أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}** و قلبه راح ضحية الحسد؟!!

ثالثًا: قيمة العمل مرتهنة للتوجه القلبي: فمهما كان ظاهر العمل برَّاقًا، ومهما أحاطه صاحبه بالكلمات المنمقة قائلاً: (هذا في سبيل الله) (وهذا قربة إلى الله) وأمثالها إن لم يكن منسجمًا هذا العمل مع القلب، فليس له يوم القيامة قيمة أو وزنًا، قال تعالى: **{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}**([14]).

وقال رسول الله (ص): إن لكل حق حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإخلاص حتى لا يحب أن يحمد على شيء من عملٍ لله **([15])**.

وعن الإمام الصادق (ع) أنه قال للمفضل بن صالح: (إن لله عبادًا عاملوه بخالص من سره، فعاملهم بخالص من برِّه، فهم الذين تمرُّ صحفهم يوم القيامة فرغًا، وإذا وقفوا بين يدي الله ملأها من سر ما أسروا إليه. فقلت: يا مولاي ولم ذلك؟ فقال (ع): أجلَّهم أن تطلع الحفظة على ما بينه وبينهم) ([16]).

القيمة الوحيدة المطلقة

وتبقى قيمة واحدة مطلقة غير مرتهنة لشيء وهي قيمة القلب الذي هو بمنزلة السيد لسائر الجوارح إذ هو وراء اللسان، ووراء الفكر، ووراء العمل، فعن أمير المؤمنين (ع) أنه قال في اللسان: " **القلب خازن اللسان** ". فكل ما يجري على اللسان إنما ينبع من القلب، فاللسان الماكر مرده إلى القلب الماكر، واللسان الغادر مرده إلى القلب الغادر، واللسان الصادق مرده إلى القلب الصادق. وقد قيل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما	جعل اللسان على الفؤاد دليلاً[17]

وقال (ع) في الفكر: " **القلب مصحف الفكر** " وقال (ع): " **لا يصدر عن القلب السليم إلا المعنى المستقيم**". فالفكر عن صفحات القلب ينقل، ولا يمكن للفكر أن يكون صافيًا إذا كانت صفحات القلب معكرة أو مظلمة أو مريضة.

وقال (ع) في العمل: " **ليخشع لله سبحانه قلبك، فمن خشع قلبه خشعت جميع جوارحه** ". وهل العمل إلا ما يصدر عن الجوارح؟

وعليه فلا يُسأل العبد يوم القيامة عن عمل أو حركة من حركات جوارحه إلا ويُسأل عن الدافع القلبي له، فإن كان الدافع رضا الله كان الأجر على الله، وإن كان الدافع هو رضا السلطان أو رضا الناس كان الأجر عليهم، **وذلك: {يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}**.

مسك الختام

بالعودة إلى فقرات زيارة الإمام الصادق (ع) لجده أمير المؤمنين (ع) نجد وصفًا مميزًا لا يمكن إدراجه ضمن القيم الحقيقة الأربعة السالفة الذكر وهو (السلام عليك يا ميزان يوم الحساب) والذي يظهر منه -والله العالم- أن عليًا (ع) فوق حدود التقييم، وإنما هو ميزان للتقييم، فيوم القيامة يُجعل هو المقياس في تقييم الآخرين وتقييم أعمالهم، ويمكن أن يكون هناك وصف آخر يدل على هذا المعنى، وهو (فصل الخطاب) إذا فسّرناه بأنه هو الذي يكون فاصلاً بين الحق والباطل في ما اختلف فيه الناس.

وقد ورد عن رسول الله (ص) أنه قال لعلي (ع): يا علي ما مثلك في الناس إلا كمثل سورة (قل هو الله أحد) في القرآن، من قرأها مرة فكأنما قرأ ثلث القرآن، ومن قرأها مرتين فكأنما قرأ ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن كله، وكذا أنت يا علي من أحبك بقلبه فقد أخذ ثلث الإيمان، ومن أحبك بقلبه ولسانه فقد أخذ ثلثي الإيمان، ومن أحبك بقلبه ولسانه ويده فقد جمع الإيمان كله، والذي بعثني بالحق نبيًا لو أحبك أهل الأرض كما يحبك أهل السماء لما عذب الله أحدًا منهم بالنار ([18]).

انتهى

---

[1] - سورة الشعراء آية 88-89.

[2] - قّ:18.

[3] - الزلزلة:7-8.

[4] - الشيخ محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء لبنان، الطبعة الثانية، 1983م-1403 هـ، ج97 ص 374.

[5] - المؤمنون / 104.

[6] - يس / 65.

[7] - الشعراء / 88..

[8] - المؤمنون / 101.

[9] - التحريم / 6.

[10] - غافر/ 16.

[11] - يس /65.

[12] - الشيخ الكليني، أصول الكافي، تحقيق علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية-آخوندي، الطبعة الثالثة، 1388هـ، ج1 ص 11.

[13] - الشيخ أبو الفضل علي الطبرسي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، دار الحديث، قم إيران، الطبعة الأولى ص 238.

[14] - سورة الفرقان آية 23.

[15] - الشيخ أبو الفضل علي الطبرسي، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، دار الحديث، قم إيران، الطبعة الأولى ص 41.

[16] - الشيخ أحمد بن فهد الحلي، عدة الداعي ونجاح الساعي، مكتبة الوجداني، قم - إيران، ص 194.

[17] - هذا الشعر منسوب إلى الأخطل، راجع شرح المقاصد ج4 ص150.

[18] - الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي، ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة، قم- إيران، ج1 376..

مرتكزات الغزو الثقافي

د. طلال عتريسي

د.طلال عتريسي

الحديث عن الغزو الثقافي ليس جديدًا، فمنذ بدايات القرن الماضي احتلّت هذه القضية موقعًا مهمًا وحسّاساً في أذهان مفكري المسلمين وعلمائهم، وكلما كانت معادلة القوة تتجه في غير مصلحتهم، كانت الأصوات ترتفع والمخاوف تزداد من الغزو الثقافي الخارجي الذي يرى فيه المسلمون تهديدًا لنظام المناعة الأخلاقي والاجتماعي الذي يستندون إليه.

منذ بداية احتكاك المسلمين بأوروبا، طرحت في أوساطهم الأسئلة حول النظرة إلى الغرب والى العلاقة به والتعامل معه، فمنهم من ذهب إلى القول بالانغلاق وإقفال الأبواب والنوافذ في وجهه، ومنهم من دعا إلى تقليده كنموذج غالب ومتقدم في كل شيء، في الإدارة وفي الجيش وفي التعليم وفي التنمية والتصنيع.. ومن العلماء والمفكرين من قال بأن علينا أن نأخذ من الغرب إيجابياته العلمية أو التكنولوجية، ونترك له سلبياته الفكرية والأخلاقية والسلوكية.. أي أن نتبّع سياسة الانتقاء، فلا نغلق الأبواب تمامًا، ولا نشرّعها من دون قيد أو شرط.

نشهد اليوم في الموقف من الغرب (العولمة) تقسيمًا مشابهًا لاتجاهات القرن التاسع عشر التي أشرنا إليها.

وثمّة مبررات يقدّمها أصحاب كل وجهة، ففي الوقت الذي يقول فيه أصحاب دعوة الانغلاق أن الغرب دار كفر ودار شرّ لا ينبغي الاقتراب منها، يرى آخرون أن ما نشهده اليوم في عالم الاتصال وثورة المعلومات يجعل التقسيم التقليدي بين الغرب وغير الغرب لا معنى له، كما يجعل الحديث عن الهوية ضربًا من الوهم والتقوقع، وبالتالي فلا معنى للحديث عن غزو ثقافي عندما يصبح الغرب جزءًا من حياتنا، ولا يمكن الاستغناء عنه ونحن نستخدم منتجاته،لأن الثقافة هي شأن إنساني يتجاوز الحدود والهويات.

هكذا لا زالت منذ قرن إلى اليوم تتكرر الاتجاهات نفسها من الغرب ومن ثقافته، علمًا بأن ما تغيّر هو اتجاه الحوار والتبادل، ورفض التصادم مع الغرب الذي أصبح أكثر اتساعًا في أوساط المسلمين.

المهم أن هذا التفاوت في الاتجاهات من الغرب تأثّر بدوره بسياسات هذا الأخير الذي لم يهمل في مراحل تعاقب هيمنته الاستعمارية من أوروبا إلى الولايات المتحدة الشأن الثقافي وهو يسعى إلى السيطرة السياسة والاقتصادية.

وعندما كانت تضطر الدول الاستعمارية إلى التراجع والانسحاب،كانت تترك في البلد المستعمر ركائز تعليمية ولغوية تتيح استمرار هيمنتها والنزوع نحو ثقافتها، مثل ما حصل في تجارب الاستعمار الفرنسي في الجزائر وفي بقية بلدان المغرب العربي، أو مثل ما حصل في إفريقيا وفي لبنان.

كان الاستعمار عندما يحتلّ بلدًا من بلدان المسلمين أو غيرهم يهتم اهتمامًا خاصاً بالتعليم وبالمؤسسات التعليمية، وكان يلجأ في ذلك إلى الوسائل التالية:

- تأسيس مدارسه الخاصة التي تجذب إليها أوساطًا اجتماعية أو دينية محددة.

- العمل على تدمير المدارس المحلية أو تهميشها.

- العمل على اختراق المدارس المحلية عبر تغيير مناهجها، أو عبر فرض أساتذة عليها.

كما كان لكل استعمار خصوصيته وخبرته في هذا المجال، فقد عمل الفرنسيون في لبنان - على سبيل المثال - وبالتعاون مع البعثات اليسوعية على تأسيس نظام تعليمي متكامل من المراحل الابتدائية إلى الجامعة، وأسسوا إلى جانب هذا البناء المتكامل مدارس مهنية ودور أيتام ومشاغل للفتيات بحيث يبقى الطالب في دائرة اهتمامهم ورعايتهم مهما كان خياره التعليمي أو المهني، ومهما كان وضعه الاجتماعي.

أما الإنكليز - وكنموذج آخر في هذا المجال - فقد عملوا على تهميش التعليم المحلي في مصر إبّان الاحتلال، فقتّروا في الإنفاق على التعليم، وأوقفوا الكثير من المدارس،وألغوا المجانية في المدارس كافّة، وعومل الأساتذة الوطنيون معاملة سيئة من النواحي المادية والأدبية، ولم يعدّل الإنكليز مناهج التعليم الشعبي، فتركوه على حاله، وعلى ضعفه في مرحلة أولى، ثم وضعوا له مناهج جديدة بعد الحرب العالمية الأولى.

أما التعليم العام، فقد غيّر الإنكليز مناهجه من أجل نشر الثقافة الإنكليزية وإضعاف اللغة العربية، وإعداد الموظفين الذين سيديرون البلاد ويتعاملون مع الاحتلال، وتراجعت حصص اللغة العربية لمصلحة اللغة الإنكليزية التي أصبحت لغة أولى.

ولا يخفي الفرنسيون في رسائل قناصلهم وسفرائهم التي كتبوها من لبنان إلى وزارة الخارجية في باريس في القرن التاسع عشر "أنهم وضعوا هدفين للمِنَح التي يقدّمونها إلى الطلاب، الأول أن يجعلوا أتباعًا لهم من بين العائلات التي تمّ اختيار أبنائها لهذه المِنَح، والثاني تحفيز الطلاب ومسؤولي المؤسسات على دراسة اللغة الفرنسية"، "وأن تعليم الأطفال الذي ترعاه فرنسا هو من بين السبل التي يمكن بواسطتها نشر النفوذ الفرنسي... وأن المِنح المقدَّمة تسعى إلى إعداد قادة إنسانيين ومستنيرين في لبنان ". لذا يقترح قنصل فرنسا في بيروت (Poujade) عام 1844م، زيادة هذه المنح لتشمل سكان لبنان كافة.

أما الغاية الأولى من تأسيس كلية للطبّ في بيروت،فيقول أحد القناصل في رسالته إلى وزير الشؤون الخارجية عام 1898م: "فهي أن تكون مؤسسة دعائية وفكرة سياسية "... " يأتي إليها شبّان هذا البلد ليتعلّموا فيها العلوم الطبية، ويتمكّنوا من دراسة لغتنا، كي ينتشروا في المشرق فيما بعد، على غرار الكثير من أصدقاء نفوذنا وحضارتنا".

كان تأسيس المدارس وإعداد المعلمين هو الوسيلة المتاحة في القرن التاسع عشر للدول الاستعمارية من أجل التغلغل ونشر النفوذ، وبهذا المعنى كان لهذا الاختراق الثقافي سمتان أساسيتان في التجربة التاريخية الغربية:

الأولى: أنه كان يقتصر على النخبة من أبناء الشعب، الذين يتوجّهون إلى مدارس المستعمر أو إلى مدارس الإرساليات التبشيرية التي كانت تتلقى الدعم المادي والحماية المعنوية من قوة الاحتلال المباشر أو من حصانته الدبلوماسية.

الثانية: أن هذا الاختراق كان بطيئًا بسبب طبيعة العملية التعليمية نفسها، والتي تحتاج إلى أعوام طويلة لتؤتي أكلها.

ولعل هذا الباب الذي دلف منه المستعمرون إلى المجتمع والى إعداد النّخب التي سيتعاملون معها في الإدارة وسيحتاجون إليها في المواقع السياسية والعلمية والجامعية، هو الذي دفع شكيب أرسلان إلى الاستنتاج في كتابه (لماذا تخلّف المسلمون وتقدّم غيرهم) بأن التعليم هو مفتاح التقدّم أو التخلّف.

وكلما طال أمر الاستعمار،كانت آثاره الثقافية اشدّ تمكنًا، ففي التجربة الجزائرية على سبيل المثال، التي ظلّت تحت الاحتلال نحو مائة عام، تمّ ضرب البنية اللغوية والثقافية في هذا البلد،لأن أكثر من جيل نشأ وتربّى في المدارس أثناء الاحتلال، بحيث دخلت الفرنسية في الكثير من مفرداتها إلى لغة الجزائريين العربية، وبحيث أصبحت الفرنسية اللغة الأولى للنخب الجزائرية، ما اضطر الجزائر بعد الاستقلال إلى الاستعانة بمدرسين عرب للمدارس والجامعات للتعليم باللغة العربية...

ما الذي تغيّر بين الأمس واليوم

هل توقّف الاختراق واستهداف هذه المجتمعات؟ أم أنه لا يزال على حاله في الأهداف والوسائل، أم أن أهداف الدول الاستعمارية توسّعت؟ وهل بقيت الأساليب نفسها أم أنها طُوّرت بما يلائم التطوّر العام للعالم؟

ثمّة ما بقي ثابتًا في هذا الاختراق، وثمة توسّع في الاستهداف وفي السبل والطرائق التي باتت أكثر فاعلية وتأثيرًا.

الذي تغيّر أولاً هو قوى الاختراق، والتي تمثّلت سابقًا في فرنسا وبريطانيا، وهي اليوم تتمثّل في الولايات المتحدة الأمريكية، من دون أن يختفي تمامًا دور الدولتين السابقتين، بل انكفأ هذا الدور بانكفاء نفوذهما السياسي في العالم، والذي تغيّر أيضًا هو الثورة في وسائل الاتصال وفي الحصول على مصادر المعلومات التي بات من غير الممكن قراءة تحوّلات أيّ مجتمع من دون البحث في الآثار التي تركتها على اتجاهات الرأي وتعديل السلوك، وتغيير الأفكار والقِيم والمواقف.

وما تغيّر هو الاستقلال الذي حصلت عليه دول العالم العربي والإسلامي منذ أكثر من نصف قرن، وزوال الاحتلال المباشر (باستثناء فلسطين والعودة إليه في العراق).

وما تغيّر هو صدور قرارات من الأمم المتحدة تؤكّد على أن المحافظة على اللغة وعلى الدين وعلى الثقافة هي حقّ من حقوق الإنسان.

وما تغيّر أيضًا هو انتصار الثورة الإسلامية في إيران وتداعياتها القوية على تعزيز اتجاهات التمسّك بالدين وبالهوية وبالاستقلال، وكذلك ما أعقب تفكك الاتحاد السوفياتي من نمو النزعات القومية واللغوية ثم العمل على صهر أوروبا في هوية واحدة، وهي ما زالت في طور النموّ والتبلور، ولم تصل إلى غايتها النهائية بعد.

والى هذه المتغيرات الأخيرة يعود السبب في ظاهرة العودة البارزة إلى الدين والى الهوية الوطنية والقومية، وإلى الاستقلال، هذه الظاهرة التي أصبحت شغل العالم الشاغل منذ الربع الأخير للقرن الماضي إلى اليوم.

ومما تغير بالمقابل هو تراجع سيادة الدولة لمصلحة لاعبين أو فاعلين جُدد، هم الأمم المتحدة (وحق التدخّل الإنساني)، والهيئات الدولية المانحة (والشركات الكبرى) والمجتمع المدني، هذا الثلاثي -الذي يعمل من خارج سيادة الدولة وتدخّله المباشر- له دور كبير في حالات وتجارب كثيرة في الاختراق الثقافي والسياسي الذي تشهده المجتمعات العربية والإسلامية.

انعكست هذه التعبيرات المعرفية والسياسية والاستراتيجية على أهداف الاختراق ووسائله وجمهوره، كان الأمر في السابق محصورًا ببعثات تعليمية تأتي إلى هذا البلد أو ذاك من بلدان العالم الإسلامي، وتحتمي بالسلطة الاستعمارية أو بالسفارات الأجنبية، فتقوم بجذب الطلاب إلى مدارسها وتعليمهم لغتها وإعداد النخب التي ستحمل أفكارها وثقافتها، أي أن وتيرة الاختراق كانت بطيئة، وتحتاج إلى سنوات لتحقق أهدافها،لكنها كانت شديدة التركيز.

وما تغيّر هنا هو اتساع جمهور المستَهدَفين من دون التخلّي عن اختراق النخبة أو (النواة) فبسبب تطوّر تقنيات الاتصال، لم تعد "الثقافة" المرسلة حكرًا على مجموعة معيّنة منتقاة من المجتمع، بل أصبحت موجّهة إلى الجميع، إلى النساء والرجال، إلى الصغار والكبار، وعلى امتداد ساعات اليوم كلها (يمكن التأمّل في محتوى هذه الثقافة،

والتساؤل عن حدود عَدائها المباشر للإسلام أو للدين عمومًا، أو عن ترويجها للإستهلاك وعدم الانتماء..).

لم يعد الاختراق أو الغزو حكرًا على بلدان العالم الاسلامي أو خاصًا بها، فما تبثّه وسائل الإعلام وقنواتها الفضائية وما تصنعه السينما يشاهده العالم كله -وليس المسلمون فقط- في وقت واحد، وشكوى الغزو وصلت إلى فرنسا التي رفعت الصوت ضد ما سمته "الغزو الثقافي الأميركي" على الرغم من التفاوت في حجم التهديد الثقافي وطبيعة ما يراه المسلم وما يراه الفرنسي في الفيلم نفسه أو في الإعلان نفسه.

يذكر سرج لاتوش، أحد أبرز الكتّاب الفرنسيين المناهضين للعولمة في كتاب له صدر عام 1989م بعنوان (تغريب العالم)، كيف أكّد له صديق جزائري كان يتجوّل معه عام 1985 في الجزائر قائلا: انظر الشوارع خالية، إنه وقت عرض "دالاس".. يقول لاتوش: عندما رويت هذه الحكاية لطلبة أفارقة أكّدوا لي بكل هدوء: الأمر سيّان هنا.

إن مقولة صِدام الحضارات أو الثقافات كما شاءها البعض أيقظت الاهتمام مجددًا بهذه القضية لدى النخب فقط،وانحصر النقاش والردود على الأطروحة، والدعوات إلى التعايش والحوار في أوساط هذه النّخب دون سواها، لكن ما بعد الحادي عشر من أيلول والمواقف الأميركية من الإسلام والمسلمين، والدعوات الأميركية إلى تغيير البرامج التعليمية في العراق ووجود مستشارة تربوية للتحالف في العراق، وكذلك الضغوط لتغيير مناهج التعليم الديني في أكثر من بلد من البلدان الإسلامية،أو إعادة تأهيل أئمة المساجد (لمنع الإرهاب من النمو).. نقل ذلك كله القلق الثقافي من دوائر النّخب الضيقة إلى جمهور المسلمين الأوسع.

ما أريد أن أشدّد عليه في ختام هذه الملاحظات حول التغيّرات التي حصلت بين الأمس واليوم في أهداف الاختراق الثقافي ووسائله، هو الدور الذي يقوم به ما سميناه (اللاعبون الجدد) على حساب سيادة الدولة، أي الأمم المتحدة والهيئات الدولية المانحة (بعضها جزء من الأمم المتحدة)، والمجتمع المدني هذه الهيئات تعمل كثلاثي متكافل ومتضامن.

وعندما نقول المجتمع المدني فإننا نعني تلك الهيئات والجمعيات التي نبتت كالفطر منذ سنوات في أكثر من بلد من بلدان العالم العربي والإسلامي وفي أوروبا الشرقية السابقة، مثل جمعيات الدفاع عن المرأة وحقوق الإنسان، والمواطنة، ومناهضة العنف، ومراقبة الانتخابات ونشر الديمقراطية، والتربية على التسامح ونبذ العنف،.. وغيرها الكثير، ومعظم هذه الجمعيات - ولن نقول كلها- يتلقى تمويلاً من الخارج، ممن؟ من هيئات حكومية وغير حكومية بعضها تابع للأمم المتحدة، وبعضها للإتحاد الأوروبي، وبعضها جمعيات أميركية للتنمية أو للمحافظة على البيئة... وحتى من البنك الدولي.

ماذا تفعل تلك الجمعيات بالدعم الذي تتلقاه، والتي لا تستطيع أن تعمل من دونه؟ تنفق قسمًا كبيرًا من هذا الدعم على عقد الندوات والمؤتمرات حول قضايا محددة.

من يحدد هذه القضايا وأولويتها وأهميتها؟

الذي يحدد هذه القضايا هي الجهة المانحة، أي أن الجهة المانحة تنفق المال لعقد ندوات تجذب إليها الباحثين والمثقفين، أو تكلّف هؤلاء بأبحاث وفقًا لتصوراتها هي عن مشاكل مجتمعاتنا، وعن كيفية تغييرها نحو الأفضل من منظورها، فعندما يهتم أحد الباحثين أو أحد مراكز الأبحاث بموضوع الأقليات في العالم الإسلامي، فلأن الجهة المانحة أو الممولة تريد تسليط الضوء على هذه القضية ربما أكثر من قضية الاحتلال أو الفقر على سبيل المثال، وعندما تريد الجهة الدولية المانحة أن تجعل من العنف (عمومًا) أو من العنف ضد المرأة (خصوصًا) مشكلة أساسية -لأنها تراها كذلك في بلادنا، وترى ضرورة مواجهتها أو تغييرها- فإن هيئات المجتمع المدني، تسارع إلى تبني هذه القضية وإلى الدفاع عنها، وسنشهد عشرات الأبحاث الممولة التي ستكشف فجأة أن العنف هو خاصية شرقية أو إسلامية أو هو نتيجة للتخلف أو للاستبداد أو للسلطة الأبوية...

إن عنصر الجذب والتمايز في هذه العملية التي سبقت الإشارة إليها هو المعادلة التالية: التمويل- والعمل مع جهة دولية أو أوروبية- والموضوع الذي يدافع عنه، وهو موضوع (جريء) ويتجاوز قضايا التخلف التي "لا يجرؤ أحد على التعرض إليها" (مثل العنف ضد المرأة أو حلّ النزاعات بطرق بناءة...)

الاختراق على هذا المستوى لا ينحصر بتبنّي الموضوعات التي تريد الجهة المانحة توجيه الاهتمام إليها، وإهمال موضوعات أخرى قد تكون أكثر إلحاحًا وأهمية من وجهة نظر مجتمعاتنا، بل تكمن الخطوة أيضًا في النتائج التي يفترض أن تتوصل إليها تلك الندوات والمؤتمرات، والتي لا ينبغي لها أن تتعارض مع توجهات الجهة المانحة ورؤيتها السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية لقضية المرأة، أو لقضية العائلة، أو للعنف، أو للنظرة إلى الآخر، أو للتسامح وللدين... وغير ذلك.

هكذا تحوّلت كثير من الجمعيات والهيئات إلى واجهات تعرض ما يطلبه "السوق" أي البضائع التي تحقق الربح المباشر.

يشير كتاب (أياد مرئية) الذي صدر عن الاسكوا عام 2002م إلى تمويل المنظمات غير الحكومية قائلا: "إن علة التمويل فرضت على هذه المنظمات إنجاز برامج اجتماعية بغية الحصول على أرصدة مالية"... وينتقد الكتاب "تبعية هذه المنظمات للمانحين الأجانب وميلها إلى تنفيذ سياساتهم"، ويأخذ عليها "التنافس في ما بينها وفي داخلها بحثًا عن الربح والتمويل تحت ستار القضايا الإنسانية والتنموية... أو بحثًا عن وسيلة تتيح بلوغ منصب أعلى..."

وتنتقد سيلفي برونيل - التي أمضت سبعة عشر عامًا في العمل الإنساني وكانت مسؤولة عن الأبحاث في منظمة (أطباء بلا حدود)- هذه المنظمات التي "تحوّلت إلى مؤسسات تجارية تعمل على خدمة مصالحها... والتي تطالب الجميع بالشفافية، وتقضي وقتها في إعطاء الدروس للآخرين، وهي بعيدة تمامًا عن تطبيق ما تعلمّه"، وتضيف

برونيل: "هذه البنى أنتجت أصحاب امتيازات لا يتميزون بأي بعد إنساني... وأن لديها انطباعًا قويًا بأن معايير إطلاق المهمات ليس فائدتها بالنسبة إلى الشعوب بل استمرار مقدمي الأموال في تحويلها إلى هذه المنظمات..." ([1]).

هذا التسويق الذي تقوم به تلك المنظمات وصل إلى المناهج والبرامج التعليمية الثانوية والجامعية، لتكييفها مع ما يريده السوق، أي مع ما تطلبه "الدول المانحة"، وما تتوقع أن تراه معروضًا... والأمر هنا لا يتعلق بعزم الإدارة الأميركية على تغيير النظام التعليمي في العراق، أو بممارسة الضغوط لإحداث مثل هذا التغيير في المملكة السعودية أو في الباكستان أو في بلدان إسلامية أخرى... بل في قدرة بعض شبكات المصالح من داخل تلك البلدان من مثقفين وباحثين وما لهم من علاقات مع الهيئات الدولية على تمويل بعض برامج ومناهج التعليم بما ينسجم مع رؤية تلك الهيئات وحاجاتها. (على سبيل المثال من الذي أدخل مفهوم "المجتمع المدني" والمشاركة فيه إلى كتب التنشئة المدنية والتربية الوطنية في المدرسة الرسمية في لبنان؟ بغض النظر عن المفهوم نفسه، أو من الذي كتب عن التقدم والتخلف، وربط التخلف بالدين والتقدم بغيره في كتب علم الاجتماع في المرحلة الثانوية في مدارس لبنان؟).

إن ما يجري على هذا الصعيد هو تدخل مباشر للهيئات الدولية التي تقدم الدعم المادي من خلال مجموعات من شبكة المصالح وهيئات المجتمع المدني([2]) لتغيير مناهج التعليم وبرامجه وللترويج لقيم وأفكار محددة، تنسجم مع رؤية تلك الهيئات، ومع توجهاتها الثقافية والاجتماعية والأخلاقية، أي لإعداد جيل من الناشئة على قيم جديدة مصدرها مجتمع آخر غير المجتمع الذي تنتمي إليه.

وما جرى في المنتدى الاقتصادي العالمي الذي عقد في الأردن في نهاية شهر حزيران عام 2003م يؤكّد ما ذهبنا إليه حول تلك التوجهات الثقافية والاجتماعية، فقد تناولت المحادثات إلى جانب الوضعين الاقتصادي والتجاري هموم الشباب والتربية، وتوقف المجتمعون كثيرًا (عند ضرورة وضع خطة لتحويل المجتمع الشرق أوسطي من مجتمع حرب إلى مجتمع سلام، وانعقدت ندوات حول كيفية خلق ثقافة سلام "بدءًا" بالمدارس "مرورًا" بالمناهج التربوية والتعليمية "وصولاً" إلى مشاريع التبادل والاندماج على مستوى الشباب والتلاميذ) ([3]).

ومن المؤكد أن تحويل المجتمع الشرق أوسطي إلى مجتمع سلام وإيجاد الثقافة المناسبة لذلك السلام، والتحضير للتبادل والاندماج، سوف يُوكَل أمره إلى هيئات المجتمع المدني، التي ستكون جاهزة لما يطلب منها في مقابل ما سيدفع لها.

والحاصل، أن الحديث يطول عن هذا النمط من الاختراق الثقافي من خلال جمعيات وهيئات ونواد مدنية، ومن خلال بعض مراكز الدراسات، إلا إن ما تغير في قضية الغزو أو الاختراق هو مقدرته على التوسع و تعدد مستوياته، وما سبق وأشرنا إليه هو نموذج أو نمط جديد من أنماط الاختراق غير المباشر التي ازدهرت قبل أكثر

من عقد في بلداننا العربية والإسلامية، أما النماذج الأخرى مثل وسائل الإعلام والسينما ومدارس التبشير وإرساليات التعليم فقد كُتب الكثير عما تقوم به، وهي من "ثوابت" الاختراق، ولا حاجة بنا للتفصيل فيها.

انتهى

---

[1] - جريدة النهار 8-5-2002.

[2] - واضح أن المقصود هو هيئات المجتمع المدني التي تتلقى الدعم من الهيئات الدولية والتي تعمل على ترويج أفكار وقيم معينة، وليس المقصود جميع هيئات المجتمع المدني (التحرير).

[3] - جريدة النهار 26-6-2002 ص12.

دور الخط العربي في تطوير وسائل الكتابة

د. محمد إسماعيل بغدادي

د. محمد إسماعيل بغدادي

مقدمة

تعتبر اللغة العربية من اللغات الحية في العالم، وقد توجهت إليها أنظار الباحثين على مرّ العصور باعتبارها لغة القرآن الكريم {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}([1]).

وكان العرب يفخرون بلغتهم لأنها تجمع بين الفصاحة والبلاغة وحسن التعبير، أضف إلى ذلك أنها لغة تعتمد على الحرف والتشكيل بالحركات.

وقد مرت هذا اللغة بمراحل عديدة من التطور، فأعجمت حروفها، ومن ثم أرسيت قواعدها الإعرابية ورتبت بحيث أصبح يسهل على المتعلم تلقيها، ثم اهتم العرب بكتابة الخط العربي وأنشأوا المدارس المتخصصة بتدريس هذا العلم وظهر الإبداع عبر التاريخ في اختراع العديد من الخطوط.

وكان الحكّام يعتمدون على الخطاطين والنسّاخ في حفظ التراث وتقدم الحضارة، واستعانوا بهم في مراسلاتهم وفي التدوين والترجمة، وكان الخطاطون في بادئ الأمر يكتبون على الجلد وورق النبات إلى أن تفتقت عبقرية الإنسان الصيني عن اكتشاف صناعة الورق، فاستفاد العباسيون عند فتحهم لتلك البلاد من هذه الصناعة ونقلوها إلى بلادهم، واعتبرت هذه الصناعة في حينها إنجازًا لا يضاهيه اليوم إلا ثورة الكمبيوتر والمعلوماتية، فازدهرت الكتابة وكثر التأليف خاصة بعد أن توصل العرب إلى سر صناعة الورق([2]).

وعلى هذا الأساس طوَّر الخطّاطون والنسّاخ أساليبهم وأقلامهم واعتمدوا على هيكلية جديدة للخط العربي تتسم بالمرونة والطواعية مما جعله قادرًا على التلاؤم مع الخامات الجديدة والمختلفة، وربما كانت هذه أول خطوة في طريق انتقال الخط العربي من طوره الأدنى إلى أطواره الوظيفية الجمالية الأعلى([3]).

نهضة الخط العربي

على أثر اختراع غوتنبرغ في القرن الخامس عشر الميلادي لحروف الطباعة انحسرت مهنة الخطاطين وحلّت مكانها الآلة التي استطاعت أن تواكب كثرة المؤلفات عند إدخالها إلى البلاد العربية، وكان موقف الخطاطين منها سلبيًا في بادئ الأمر لأنها قضت على مورد رزقهم وقلّصت دورهم، ولكن هذا لم يستمر طويلاً خاصة بعد أن بدأت

بعض المعوقات في تطوير الخط العربي بالظهور، وتبين أن هذه الآلة لا تستطيع القيام بكل ما كان يقوم به الخطاط، فشكّل ذلك حافزًا لبذل الجهود ومضاعفتها من قبل الخطاطين، فسعوا لاكتشاف ما يناسب ويسهل أمور الطباعة بدل الوقوف في وجه هذا التطور.

ولم يتوقف الاعتراض عند الخطاطين الذين من حقهم الاعتراض، بل صدر أيضًا ولدواع خبيثة عن طريق بعض المتغربنين الذين بدأوا هجومًا على الحرف العربي بهدف بذل الجهود من أجل تغييره وتبديله ليلائم مهام الطباعة فلم يفلحوا.

واستمر السجال في هذا الموضع ردحًا من الزمن وظهرت بنتيجته مشاريع عديدة لتطوير الحرف العربي، وكان أخطرها شانًا على مستقبل اللغة تلك التي دعت إلى إلغاء بعض من حروف اللغة، لا بل جميعها واستبدالها بالحرف اللاتيني اقتداءً بتجربة أتاتورك في تركيا.

عقدة الحرف العربي المطبوع

قبل وجود الكمبيوتر، كان الحرف العربي يشكّل عقدة تقنية بالنسبة لعلميات صفّ الأحرف، استعدادًا للطباعة، وذلك ضمن ما يسمى "التنضيد"، في حين كانت البداية في تقليد يد الخطاط في كل تركيبات الحرف.

هذه العُقدة ساهمت في تعطيل الحرف العربي عن مواكبة التطوّر المطبعي بالسرعة التي شهدها الحرف اللاتيني، وذلك لأسباب عديدة، أهمها:

- اتصال الحروف العربية ببعضها في أكثر الأحيان، كما انفصالها في أحيان أخرى، فمثلاً كلمة "إجراءات" تتكون من سبعة أحرف، فيها ستة أجزاء منفصلة، وكلمة "فسنكفيكهما" فيها عشرة أحرف في جزء واحد متماسك.

- إن شكل الحرف العربي الواحد يتغيّر وفقًا لموضعه في الكلمة، ومن الناحية النظرية هناك أربعة أشكال يمكن لكل حرف أن يتخّذها، وهي معروفة لدى شركات الطباعة بالأسماء التالية:



التصاميم الرئيسة الأربعة لحرف الياء.
الشكل (١)

الأولى (Initial): هـ / بـ

الوسطى (Midial): ـهـ / ـبـ

الأخير المتصل (Final): ـه / ـب

الأخير المنفصل (Isolated): ه / ب

الشكل (1)

- الكتابة المشكولة التي تقتضي وضع الشكل لحركات الإعراب على مختلف أوضاعها وأشكالها كما يرد في ***الشكل (2)***.



الشكل (٢) حوالى ٨٠٠ شكلاً طباعياً لحرف العين وحدها

إن هذه العُقَد التقنية تحتاج الطباعة فيها إلى عدّة آلاف من الأشكال المختلفة حتى تعطي للكتابة العربية المنضدة حقّها.

"جرت محاولات عديدة لتخطي العُقد التقنية في تنضيد الحرف العربي، وكانت أبرز محاولة قام بها المستشرق الأميركي "غالي سميث" في بيروت عام 1849، إذ إنه استطاع - بمعاونة بعض الخطاطين المحليين - استنباط حرف طباعي أنيق محدود بعدد أشكاله التي لم تتعدّ الـ 900 شكل، اعتمدت كلها على تقليد خط النسخ"([4]).

ومهما كان من أمر تلك الحروف، المستنبطة، فإنها عجزت، إلى حدّ ما عن الاحتفاظ بمسحة الجمال المطلوبة التي يضفيها قلم الخطاط.

"إن التحدي الكبير الذي واجه المطبعة العربية بدأ مع أوائل القرن العشرين، عندما أخذت آلات التنضيد الميكانيكية تغزو مطابع الغرب، ولم تكن هذه الآلات تستوعب أكثر من 125 شكلاً، فكيف كان لها أن تستوعب مئات الأحرف الذي تتطلبه الطباعة العربية" ([5]).

ورأى الطباعيون العرب أنه لا مفرّ لهم من الابتعاد عن شكل الحرف التقليدي المخطوط ولو بنسبة ضئيلة.

وبعد جهد مضنٍ، توصّل - بل تجرّأ - الصحافي اللبناني المغترب "سليم مكرزل" إلى اختصار الحروف العربية إلى 122 شكلاً، بما في ذلك الأرقام والفواصل وغيرها، وقد صدرت جريدته النيويوركية "الهدى" أثناء الحرب العالمية الأولى، بالحرف الآلي المختصر الذي وضعه، ثم توصّلت شركة غربية إلى اختصار هذا الرقم إلى 96 حرفًا.

وقد توصّل صحافي لبناني آخر، وهو المرحوم "كامل مروة"([6]) إلى تنضيد جريدته البيروتية "الحياة" آليًا بواسطة 88 شكلاً فقط من أشكال الحروف العربية.

ولعل الشيخ إبراهيم اليازجي - الصحفي اللبناني - كان من الروّاد الأوائل الذين ساهموا أو تبنّوا قضية اختصار الحروف العربية، فقد صدر له كتاب في أواخر مراحل حياته، تحت عنوان "نجعة الرائد"، نُضّدت مادته بالحرف العربي.

الآلة الطابعة

بدأ الإنسان الكتابة، ولم يألُ جهدًا في تطوير الوسائل التي تساعد على تحسين وضعية الكتابة ومستوى أدائها، كانت اليد وما زالت الوسيلة الفعّالة للكتابة، رغم ما استحدثه الإنسان من آلات يضبط بواسطتها الكتابة.

ظهرت الآلة الكاتبة (type writer)، وقد كان لهذا الاختراع أثره الواضح على كل نشاطات الكتابة اليدوية، التي كان يقوم بها الخطاط.

ظهرت هذه الآلة كوسيلة مباشرة للعمل الطباعي في المطبعة، التي كانت - كما أشرنا - تعتمد على طريقة صف الأحرف وتنضيدها، وبذلك ساهمت هذه الآلة في تطوير أعمال الكتابة، واختزلت الكثير من الوقت.

سارت الآلة الكاتبة ردحًا من الزمن، وهي تستخدم بالطريقة اليدوية، ثم ارتقت إلى آلة كهربائية، وصارت إمكانية الكتابة السريعة موفورة وأكثر فاعلية من ذي قبل، كما أن هذا التطوّر الفعال في استخدام الآلة، سار خطوات حثيثة على مستوى تحسين النوعية والأداء، حتى لحرف النسخ ذاته.

مضى عصر الآلة الكاتبة قدمًا، إلى أن حلّ محل هذه الآلة التطوّر النوعي في عالم الاتصالات، عن طريق استخدام الكمبيوتر (الحاسوب) الذي كان له دور في وضع الأحرف الجاهزة عند بدايات وضعه في العمل.

ظهور الأحرف الجاهزة (letraset)

إن مسيرة تطور الخط العربي توقفت عند الأنواع الرئيسية الستة ([7]) التي كانت نتاج حقب مديدة من الزمن، واعتاد المتعلّمون للخط أن يحاكوا هذه الخطوط انطلاقًا من فكرة أنّ من يجيد هذه الخطوط يصبح خطاطًا وفنانًا في مجالات كتابته.

إن المتعلم لهذه الخطوط لا بد أن يمرّ بمرحلة التقليد والمحاكاة، تمامًا كما يبدأ الطفل المتعلم بالتدرب على أشكال الحروف وصور الكلمات، ولكن منطق التطور يفرض عدم الاكتفاء بالتقليد، وإنما محاولة الإبداع والابتكار.

فما السبب وراء هذا الجمود؟

ربما يمكن القول بأن معارضي استخدام الكمبيوتر اليوم لأغراض الخط العربي هم أنفسهم المحافظون على التقليديّ من الخطوط، عندما دعوا إلى التمسك بأساليب الكتابة بالريشة أو القصب الغزار([8]) فحسب، وأن يتجنبوا استخدام الكمبيوتر.

إن هؤلاء قد أضروا بالخط العربي حيث أرادوا النفع، لأن إرهاب الفكرة جعل معظم الموهوبين يبرمجون أنفسهم على إتقان المحاكاة والتقليد.

وقد يُعزى الإبداع إلى قمة الإبداع في الخطوط الستة، وخاصة في ميدان الخط الثلث ولوحاته الفنية.

وهنا تحضرني ملاحظة، عندما زرت أحد أبرز خطاطي زمانه في لبنان والعالم العربي، الأستاذ كامل البابا، عندما كان يقوم بإعداد وتحضير اللوحات الفنية لمشاهير الخط العربي ليضمّنها كتابه (روح الخط العربي).

لقد تناول الخطاط البابا ورقة كتبها الخطاط التركي الشهير حامد الآمدي، وفيها كتابة لآية قرآنية بالخط الثلث المتشابك، ودعاني إلى التأمل بها وملاحظة أوجه الإبداع فيها، مع أنه هو كتب لوحات خطية مشابهة وبالخط الثلث أيضًا!

إن التمسك بأقلام الخط الستة جعل ممتهني الخط يؤدون أعمالهم بشكل نمطي، وبصيغ متكررة لا تلقي بالاً إلى خصوصية كل حالة أو وظيفة، فكتبوا بها على كل شيء، من الورق وإلى الزجاج إلى القماش، إلى الرخام، إلى النحاس، وغيره، مما جعل البعض يتنكب الخطوط الستة المألوفة إلى الخطوط الجاهزة (letraset) أو في الحالات الأفضل إلى البعض من ذوي اللمسة الخاصة من الخطاطين على قلّتهم.

والخطوط الجاهزة كما تظهر في نموذجيها العربي واللاتيني، جاءت حلاً مرتقبًا إلى حينٍ، للاستغناء عن الخطاط من جهة، ولتوخي السرعة في العمل من جهة ثانية، لكن سرعان ما أثبت الواقع بطلان هذا الحل، ناهيك عن فقدان اللمسة الفنية التي يضفيها الخطاط على عمله، خصوصًا في كتابة مانشيت الصحف التي تخضع لعوامل التبدل والتغيّر في الحقول الإعلانية، بحسب الإثارة في الأحداث والتفاعل معها.



شكل رقم (3)

نموذج (letraset): للأحرف اللاتينية بحسب قياساتها وأنواعها المتعددة



شكل رقم(4)

نموذج (letraset): للأحرف العربية الجاهزة بحسب أنواعها المتعددة

لم تتوقف مسيرة تطور الخط العربي بشكل قاطع، والدليل على ذلك الأشكال الموجودة في الخطوط الجاهزة (letraset) على تشابهها، أو في تلك المستعملة في الكمبيوتر، وذلك بغض النظر عن مستوى جودة بعضها أو رداءة البعض الآخر.

إنما الذي توقف هو إيجاد أنواع جديدة من الخطوط غير تلك المعروفة منذ القدم، والنموذج المبيِّن للأحرف العربية الجاهزة يظهر تشعبات للخط الكوفي ما عدا الفرع الأخير، فهو متشعب عن خط النسخ بذي قاعدة عريضة.

والمرحلة السابقة كانت تمكّن الخطاط من ابتكار أو إبداع خط جديد لأنه كان متفرغًا كليًا لكتابة الخط، فقد كانت المؤسسة أو المملكة أو السلطان، تدفع راتبًا إلى الخطاط لقاء التفرغ على الخط، وكان طوال النهار يُجري الدراسات ويتابع الأفكار ليأتي بأشكال جديدة، إنما منذ فترة صار الخط مجرد حرفة يعتاش منها الخطاط، وصار متفرغًا للخط التجاري.

"... لكن الدراسة لإنجاز خط جديد تواجه مشكلة شكل الحرف الجديد الذي ستطرحه للناس الذين اعتادوا على رؤية حرف قديم، إذ سيبقى بعيدًا عن إدراكهم ورؤيتهم، إضافة إلى أن الحرف العربي "يواجه حربًا" لتعدد الأفكار والاتجاهات وتعدد النظر إلى الحرف، وتعدد الميول للحرف وتنوّعه، ذلك أن إتقان الحرف يحتاج إلى الكثير، ومن بعد ذلك تأتي مرحلة التطوير والابتكار"([9]).

بين الحروف الجاهزة وكتابة الخط

أشرنا فيما مضى إلى محاولات مضنية قام بها العاملون في الصحافة، للحد ما أمكن من الاعتماد على عمل الخطاط في كتابة خطوط الصحف والمجلات، وذلك لأسباب عديدة، أظهرها متابعة الخطاط لعمله الليلي، والكلفة الناتجة عن هذا العمل.

وإزاء هذه المحاولات صُممت حروف في معظم أنواع الخط العربي، فكانت حروفا مستقلة بجميع تركيباتها.

في البداية كانت الحروف مطبوعة على ورق لماع، يتم تركيب العنوان بها عن طريق قص الحروف المناسبة له وتلصيقها على ورقة أخرى بالترتيب المطلوب، وهذا العمل بحد ذاته يختص به - عادة - الخطاط، فهو أدرى الناس معرفة بتركيبات أنواع الخط العربي، بذا، لوحظ أن الوقت الذي يستغرقه الخطاط في تركيب عنوان ما بالحروف الجاهزة أكثر من تخطيطه بالقلم على الورق مباشرة، بالإضافة إلى عدم توافق الحروف مع بعضها بالآخر الذي قد يسببه قص الحروف.

شهدت الطريقة الأولى بعض التحسين، حيث طبعت على ورق شفاف لضمانة التوافق بين الحروف، ولكن الخطاط بقي هو المحور الرئيسي في إنتاج العنوان بهذه الطريقة.

فاتجهت أنظار الصحفيين إلى طريقة أخرى تلغي وظيفة الخطاط بالدرجة الأولى، والتي تتمثل في الابتعاد عن تركيبات الخط العربي التقليدي.

أولى البوادر ظهرت في الشام، فقد تم هناك اختراع الحرف العريض أو خط القاعدة، وهو خط أقيم على أساس من الخط النسخي، أضيفت إليه قاعدة عريضة موحدة، ويمكن للمُخرج الصحفي المنفذ - أو أي مصمم آخر - أن يقوم بهذا العمل، وذلك نظرًا لعدم احتوائه على تركيبات الخط العربي التقليدي.

ولوحظ أن طريقة الحروف الجاهزة - خصوصًا المضغوطة - كانت هي الملجأ الوحيد الذي توجه إليه صحفيو العصر، فنشطت حركة استنباط الحروف الحرة نشاطًا مطردًا، حتى باتت الصحف العربية - العالمية منها والمحلية - تعتمد عليها في كتابة عناوينها الرئيسية وأبوابها الثابتة، وهذا أتاح فرصًا عديدة لشركات الطباعة العالمية، التي فتحت صدرها للخطاطين المبدعين والمجددين، أن يقدّموا لها مشاريعهم، وهي تقوم بتبنّيها وطبعها على الورق اللادن، بالمواصفات الفنية، تمشيًا مع طريقة تركيب الحرف العربي، كل حسب نوعه.

هذه الثورة التقنية الجديدة التي قامت - أساسًا - على إلغاء القلم وتجميد المداد الأسود في محابره، أثارت الغيرة في نفس الخطاط الصحفي، فقام - من جانبه - بمحاولة التصدي لها، كانت نتيجتها ظهور الخطوط العريضة التي تشبه الحروف الجاهزة مع شيء من الأناقة.

وهكذا قامت معركة خفيّة بين الحروف الجاهزة والخطوط التقليدية، دامت سنوات طويلة، والغلبة في النهاية تكون دائمًا لكل ما يتصل بالتقنية الحديثة.

وتبقى مسألة الجودة هي وحدها القابلة للنقاش والجدل، فالواقع أن بعض مصممي الحروف الجاهزة قد أفرطوا في الفوضى غير المجدية، في تقديم خطوطهم المبتكرة، إذ استمالتهم الناحية التجارية أكثر من سواها.

"ولتعزيز تصديهم لهذه الثورة التقنية، استحدث الخطاطون الصحفيون والإعلاميون خطوطًا حرة على أساس الخط الرقعي، وهي خطوط مرنة ليس لها قاعدة، ونظرًا لمرونتها وعدم اعتمادها على قاعدة موحدة، صعب إدخالها في مجال الحروف الجاهزة، فبقيت - إلى جانب الخطوط التقليدية - السلاح الوحيد في أيدي الخطاطين يصدّون به هجمات التقنية المنهالة على أقلامهم بين الفينة والأخرى"([10]).

دور الكمبيوتر في حلّ عقدة الطباعة

"ثم جاء دور الكمبيوتر ليختزل الحروف العربية إلى أدنى حد ممكن، وقد أمكن تذليل العديد من الصعوبات مثل الحروف (س ش ص ض) التي كانت مكونة من ثلاثة أجزاء لكل حرف، فاختصرت على آلة التثقيب إلى حرف واحد لكل منها، إذ يقوم الكاتب بالضرب على مفتاح واحد لأي نوع من حروف السين - مثلاً - وعلى العقل الآلي أن يميز - حسب البرنامج - الحرف المطلوب، هل هو في أول الكلام أو في وسطه أو في آخره".

كان لا بد من استعمال الحاسبات الالكترونية، مع التصفيف الفوتوغرافي، الشيء الذي مكّن الطبّاع العربي من تقليد يد الفنان الخطاط الماهر في حركتها الحرّة الدقيقة، فقد رسم الخطاطون حروفًا أبجدية عربية كاملة، بأشكالها الأساسية ومركباتها الفنية، بمختلف أصنافها، لهذا العقل الآلي، وأعطوا لتناسق أجزاء كل حرف - منفردًا كان أم منفصلاً - أهمية كبرى من حيث القيمة الفنية المعروفة في خط النسخ.

ويرى الخطاط البرجاوي بأن التقنيات الحديثة المستخدمة في الكمبيوتر قد أثّرت بشكل كبير على الخط كمهنة أساسية في بعض القطاعات، كالصحف مثلاً([11]).

وقد حلّ الكمبيوتر محل الخطاط في هذا المجال بشكل كبير، ولكن لا ننسى أن هذا الجهاز مع ما يتمتع به من إمكانات كبيرة، فهو لا يستطيع إخراج الخطوط الفنية بشكل جيد، ونرى ذلك واضحًا في أغلب المطبوعات والصحف التي تصدر حاليًا في مختلف البلاد العربية.

والمعلوم أن الكتابة الصحفية سواء من قبل الخطاط أو من قبل الكمبيوتر، لا تتطلب جهدًا فنيًا إبداعيًا، لذلك يمكن للكمبيوتر أن يلبّي أغراض السرعة في هذا المجال، ولا قدرة له على جودة الإخراج أو أي أداء فني، وذلك كما ورد في مقابلة مع الخطاط جمال غلاييني الذي يعتبر بأن الكمبيوتر أثّر عمليًا على نوع من الخطاطين، وهم الخطاطون الصحافيون، أما الخطاط الكلاسيكي فلا يزال لديه إمكانية العمل وإظهار الإبداعات التي يعجز عنها الكمبيوتر.

هل الخلل في خطوط الكمبيوتر يعود إلى الكمبيوتر نفسه أم إلى الخطاط؟

يجيب الخطاط بعيون: "السبب في الكمبيوتر، لأنه جمع للأحرف، وبسبب التقنيات، لأنه قبل استخدام الحرف الحالي للكمبيوتر كانوا يستخدمون أحرف (صف اليد)، وقد كان الحرف في غاية الجمال، لأن (سبّاك الحروف) كان يختار أحسن الخطاطين، وهو يفتخر أن الخطاط الفلاني قد كتب له، واليوم الكمبيوتر يحوّل الخط إلى أحرف تجارية، وقد كانت محاولات لإدخال الحرف (الديواني) إلى الكمبيوتر لكنها فشلت، ومن الصعوبة بمكان إدخال الديواني للكمبيوتر"([12]).

واعتبار ذلك صعبًا يعود إلى طبيعة الحروف الخاصة بالديواني التي يتصرف بها الخطاط كما يقتضيه ذوقه وفنّه، فإذا ابتعد عن هذا الاقتضاء يفقد الخط كثيرًا من ميزاته، وهذا ما لا قدرة للكمبيوتر على تدبيره.

أما ما يقال عن الخلل في الخطوط بسبب الكمبيوتر، فليس المقصود به كآلة، وإنما من اعتمد العمل بواسطته من المبرمجين والمهندسين.

وبرأي الخطاط محمود البرجاوي([13]): أنه ليس هناك من برامج للخط العربي في الكمبيوتر، وإنما هناك برامج تستطيع صناعة أشكال الحروف (عربية وغير عربية)، وذلك بعد أن تتم كتابة الحروف بمختلف أشكالها المفردة والمتصلة، ووصلات الحروف ونقاط الالتقاء بين الحروف كافة، وكذلك النقاط والفواصل وعلامات التشكيل والتزيين وعلامات التعجب والاستفهام.

وبعد ذلك يُصار إلى تصويرها على جهاز خاص (Digital Scanner) ومن ثم يقوم مهندس مختص بإعادة رسمها على شاشة الكمبيوتر بدقة متناهية، ولا بدّ من وجود صاحب الخط عند عميلة إتمام رسم الحروف، وذلك حتى لا يحصل تحوير في شكل الحرف فيأتي غير ذلك الذي قام الخطاط بكتابته في الأصل.

أما بخصوص برامج الخط العربي، فإن هناك بعض البرامج المصنوعة في مصر وإيران، قد حاولت أن تتجاوز هذه العقبات في بعض الخطوط، ولكن نسبة النجاح في هذه المحاولات ليست كبيرة، وبالتالي لا تعتبر هذه البرامج من الأهمية بحيث أنه يمكن الاعتماد عليها، ولا بد لمن يريد أن يستعمل هذه البرامج لكتابة عنوان فني بشكل صحيح من أن يكون خطاطًا، لذلك تنتفي أهمية استعمالها.

أهمية الارتقاء بالخط العربي

من البديهي القول بأن للخط العربي أهمية ذات بُعد حضاري، فضلاً عن الدور الوظيفي المشهور، الذي كان وسيبقى ما دامت يد الإنسان موجودة، إنْ من الناحية العملية أو من الناحية الفنية.

ولذلك يقتضي الأمر عدم الاكتفاء بتعداد مآثر أجدادنا، دون أن ندرك أن العقل والإرادة والبحث والسعي إلى التطور، بروح مبدعة وثّابة كانت وراء إنجازاتهم، كلٌ في مجاله.

وفي مجال الخط العربي، نرى لزامًا أن نكمل ما بدأه أسلافنا، لا أن نجترّ ما أنجزوه، وأن نستفيد من منهجهم الذي قام على الفرز المستمر والانتخاب والتوليد والاشتقاق والإضافة والابتكار، تبعًا للجماليات العامة وجماليات الوظيفة وخصوصياتها، وأساليب تنفيذها وأغراضها وغيرها من العوامل المؤثرة([14]).

إن العلم والثقافة والوعي هي ما نحتاج إليه إلى جانب الموهبة والفن، للارتقاء باستخدام الخط العربي لنلبي المتطلبات التي يطرحها التطور ومستجدات الحياة، بصيغ جمالية دائمة التطوّر، تشمل وظائفه كلها من أدناها إلى أرقاها، من الكتابة اليدوية إلى اللوحة الفنية، الأمر الذي سيضرّ حقًا بالنسّاخ ومهنة الخط العربي.

ولكن هذا الارتقاء سيفتح الباب واسعًا أمام الفنانين من الخطاطين ذوي الموهبة والثقافة والوعي، وعلى هؤلاء تقع مسؤولية تصميم الأشكال الملائمة لبرامج الكمبيوتر وتطويرها باستمرار.

"الكمبيوتر - ما من شك - إنجاز علمي، وموجة لا يمكن الوقوف في وجهها، وفي تطور مستمر، ولكن عالميًا، أما عربيًا فلا، فهناك آلاف (الموديلات) للحرف اللاتيني، وكله معتمد، ولكن الحروف العربية الموجودة على الكمبيوتر التي قد تبلغ الألف، لا يستخدم منها إلا ثلاثة أحرف أو أربعة أحرف، نراها أنا وإياك على الجريدة، على المانشيت، حرفًا مطبعيًا مكبرًا، وعلى المتن حرفًا صغيرًا وحسب. والحرف الطباعي مقروء، لكن دون روح"([15]).

إن الدعوة للارتقاء بالخط العربي موجّهة أولاً وأخيرًا إلى الخطاطين المبدعين القلائل، وذلك بأن يثبتوا دورهم وفاعليتهم في التجديد بدل أن يترك هذا الدور على عاتق المتطفلين ممن يمتهن العمل في برامج الكمبيوتر دون أن يكون لهم فيه أي باع ولا شأن.

إنها دعوة إلى الخطاطين المبدعين الذين عملوا ويعملون على تحسين صورة الحرف العربي عن طريق رسمه وملاءمته شؤون الطباعة في الكمبيوتر.

انتهى

---

[1] - يوسف الآية 2.

[2] - منير الشعراني، ليست المشكلة في الخط العربي أو الكمبيوتر، مجلة العربي، ع470، وزارة الإعلام بدولة الكويت 1998، ص164.

[3] - المصدر نفسه.

[4] - عبد العزيز الصويعي، الحرف العربي تحفة التاريخ وعقدة التقنية، الجماهيرية للنشر، ط1، 1989، ص171.

[5] - ورد ذلك في مقابلة مكتوبة مع الخطاط اللبناني محمود برجاوي عام 1999.

[6] - نقيب سابق للصحفيين في لبنان.

[7] - الكوفي - الثلث - النسخ - الديواني - الفارسي - الرقعة.

[8] - نبات من القصب الدقيق تُصنع منه أقلام الكتابة، وغالبًا ما ينبت على ضفاف الأنهر، ولا يستعمل إلا بعد يباسه، واشتهر في هذا المجال الغزار الإيراني لجودته.

[9]- مجلة العهد، بيروت، الجمعة 18 جمادى الأولى 1421هـ، مع الخطاط محمود بعيون ص21.

[10]- عبد العزيز الصويعي، الحرف العربي، ص198.

[11] - جاء هذا القول من ضمن مقابلة مكتوبة مع الخطاط محمود برجاوي، وهو خطاط جريدة السفير لفترة طويلة، وواضع حروف الكمبيوتر الذي تكتب به الصحيفة.

[12] - المصدر السابق نفسه.

[13] - المصدر السابق نفسه.

[14] - عبد العزيز الصويعي، الحرف العربي، ص168.

[15] - مجلة العهد، بيروت، مع الخطاط محمود بعيون ص21

الشيخ لطف الله الميسي

الشيخ محمد تقي محمد جواد الفقيه

الشيخ لطف الله الميسي العاملي

مسجد الشيخ لطف الله العاملي الميسي في أصفهان



الشيخ محمد تقي محمد جواد الفقيه

ليس غريبًا أن يقال: (أصفهان نصف جهان) أي نصف العالم، فهي مدينة فاقت غيرها من المدن الإيرانية بتراثها الفكري والحضاري، وطالما كانت عاصمة العِلم في إيران.

والغرض من هذا العرض الموجز هو الوصول للحديث عن شخصية مهمة ارتبط اسمه بواحد من أهم المعالم الدينية والتراثية والسياحية في هذه المدينة، وهو مسجد الشيخ لطف الله.

فمن هو هذا الشيخ؟ ولماذا اقترن اسمه بهذا المسجد؟ وما هي أهمية هذا المسجد؟

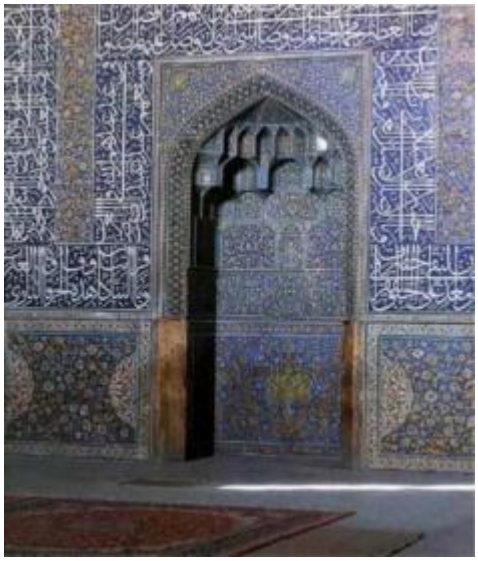
أسئلة قد تخطر ببال القارئ، خصوصًا عندما يقرأ ويطالع هذا الموضوع المتعلق بالتراث العاملي.

نعم فهو الشيخ لطف الله ابن الشيخ عبد الكريم ابن الشيخ علي ابن الشيخ عبد العالي الميسي أحد أبرز علماء عصره (في القرن الحادي عشر الهجري).

مسجد لطف الله

أما المسجد فأكتفي بما نقله المؤرخ السيد حسن الأمين عن الآشتياني محقق كتاب "تاريخ عامل آرا عباسي":

لا شك أن مسجد الشيخ لطف الله هو واحد من أجمل الآثار العمرانية في أصفهان، حيث يشدّ المُشاهد إليه بجماله وإبداع الفنانين الذين أضافوا عليه آيات الزينة والجمال.



يقوم هذا المسجد في الضلع الشرقي لميدان (نقش جهان)، بإزاء بناية (عالي قاپو) أو(دولت خانه)، ويندر أن يكون له نظير في أقطار الأرض، لزخارفه وفُسَيْفِسَائه، داخل وخارج القبة، وللخطوط التي بلغت غاية الروعة، بيد علي رضا التبريزي العباسي.

بدأ العمل بهذا المسجد بأمر من الملك عباس الأول عام (1011 هـ)، أي في نفس العام الذي أمر فيه ببناء ساحة (نقش جهان) والأسواق الأربعة المحيطة بها، واستمر العمل فيه حتى عام 1028هـ.

والهدف الرئيسي الذي أراده الملك في بنائه لهذا المسجد والمدرسة المجاورة، هو تهيئة محلٌّ تدريسٍ ومركزِ إقامةٍ وإمامةٍ للشيخ لطف الله العاملي، الذي اشتهر آنذاك بتقواه وزهده وجلالة قدره، وكان الملك كثير التعلق به، ويجلّه ويعظّمه.



ونقصد في هذه المقالة الإشارة باختصار إلى حياة الشيخ لطف الله، وعلاقاته مع بعض المشاهير من علماء عصره، ليتسنى للقارئين الإحاطة بإلمامة موجزة عن حياة هذا الشخص الذي اشتهر هذا المسجد العظيم باسمه، وليقفوا على بعض أوضاع الحوزة العلمية في عصر الشيخ التي عاشت أفضل أدوار حياتها في زمن الدولة الصفوية ([1]).

من هو الشيخ لطف الله

هو ابن الفقيه الشيخ عبد الكريم بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ علي بن عبد العالي المَيْسي العاملي ثم الأَصفهاني.

كان عالمًا فاضلاً صالحًا، فقيهًا متبحرًا، عظيم الشأن جليل القدر، أديبًا شاعرًا ولد في ميْس (من جبل عامل بلبنان)، وارتحل في أوائل شبابه إلى مدينة مشهد (في بلاد خراسان بإيران)، وعكف على تحصيل العلوم، وأخذ الفقه عن شهاب الدين عبد الله بن محمود التستري (الشهيد 997هـ) وغيره، ثم درّس بالروضة الرضوية الشريفة، وتولى نظارتها.

ولما استولت قوات القائد الأوزبكي عبد المؤمن بن الملك عبد الله خان على خراسان، نجا المترجَم منهم، وتوجّه إلى قزوين. فكان بها مدرسًا، وبعد مقتلة قزوين انتقل إلى أصفهان، واتصل بالسلطان عباس الصفوي فعظّمه، وبنى له فيها السلطان المذكور مسجدًا ومدرسة، فأخذ يقيم صلاة الجمعة في مسجده، ويدرّس الفقه والحديث، و يُفتي، وقد لاقت فتاواه قبولاً في عصره.

وقد استجاز - بعد أن بلغ من العلم ما بلغ - العالمَ الشيخ بهاء الدين العاملي، فأجاز له رواية جميع ما يحقّ له روايته من المعقول والمنقول والأُصول والفروع، قائلاً في وصفه: الأخ الأعز الأمجد، صدر صحيفة الفقهاء العظام، وديباجة جريدة الفضلاء الكرام، ونتيجة أعاظم العلماء الأعلام. وكان المجيز المذكور - الشيخ البهائي - يعترف له بالفضل والعلم ويأمر بالرجوع إليه.

بنى له الشاه عباس الصفوي المسجد والمدرسة المشهورين بأصفهان في مقابلة عمارة (عالي قابو) في ميدان (نقش جهان)، ولذلك اشتهر ذلك المسجد وتلك المدرسة باسمه، وعيّن له وظائف وإدارات، وكان له عدة أولاد ذكور وإناث، وأكبرهم سنًا وأعظمهم مكانًا الشيخ جعفر.

وكان ممن يعتقد وجوب صلاة الجمعة عينًا في زمن الغيبة، وكان يقيمها في مسجده المذكور ويواظب عليها، وكان سكنه في جوار ذلك المسجد.

وبالجملة هذا الشيخ ممن فاز بعلو الشأن في الدنيا والآخرة، وكان معظمًا مبجلاً جدًا عند السلطان المذكور.

وكان له بنتان، تزوج بإحداهما الآميرزا حبيب الله الصدر المعروف، وحصل منها له الوزير الجليل الآميرزا مهدي وأخوه آميرزا علي رضا شيخ الإسلام بأصبهان. وتزوج بالثانية السيد آميرزا محمد مؤمن العقيلي الإسترابادي وقد ولد له منها أولاد ذكور([2]).

جاء في أعيان الشيعة أن الشيخ حسن الحانيني خاله، وأنه قال فيه حين وصله كتاب من كتبه:

خليلي إن رمت السلوَ فَغَنِّ لي	بأوصافِ لطفَ اللهِ فهي جمالُ
فتىً رقمُه فيه انتظامُ جـداولٍ	على الفضةِ البيضاءِ فهي مثالُ
أتانا كتابٌ من رسومِ يمينــِه	تقاصَرَ عنه في المجالِ رجالُ
هو السحرُ ممزوجًا بكأسِ مذاقِه	يروقُها الراووق فهي حلالُ
يتيهُ على الدنيا بآياتِ فضلِـه	وتفصيلُه للسامعين جلالُ([3])

قصة مثيرة للجدل

ذكر المؤرخ السيد حسن الأمين (رحمه الله) في مستدركات الأعيان قضية غريبة مفادها أن الأستاذ فؤاد البستاني ادعى أن الشيخ لطف الله الميسي ذهب إلى إيران موفدًا من الأمير فخر الدين المعني للتوسط لدى الشاه الصفوي.

وقد ردَّ على ذلك، فقال:

يزعم الأستاذ البستاني أن فخر الدين المعني أرسل الشيخ لطف الله العاملي من ميس الجبل إلى عند الشاه عباس في إيران، لينسّق بين الشاه وفخر الدين في حربه مع العثمانيين، والأستاذ البستاني حين يقول هذا القول فإنه يجهل حقيقة مهمة علماء جبل عامل في إيران في عهد الدولة الصفوية.

إن الهجرة العلمية العاملية إلى إيران هي أبعد عهدًا وأسمى هدفًا مما يظن الأستاذ البستاني.

وإذا كان فخر الدين المعني هو الذي أرسل الشيخ لطف الله العاملي إلى الشاه عباس فمن الذي أرسل قبل ذلك المحقق الكركي الشيخ علي بن الحسين بن عبد العالي المتوفى سنة 940 هجرية (1534م) إلى الشاه إسماعيل والشاه طهماسب؟!

ومن الذي أرسل الشيخ حسين عبد الصمد المتوفى سنة 984 هجرية (1576م) وولده محمد بهاء الدين؟!

ومن الذي أرسل الشيخ إبراهيم البازوري والشيخ محمد علي خاتون والسيد بدر الدين الحسيني الأنصاري؟!

ومن الذي أرسل المئات غيرهم من علماء جبل عامل؟

لقد كان سبب هذه الهجرة، أن الدولة الصفوية قامت أول ما قامت على كيان عسكري بحت يرتكز إلى القوة المادية وحدها، فكانت بحاجة إلى العلماء والمثقفين، فوجدت بغيتها في هذا الجبل العظيم (جبل عامل)([4]).

كلمة العلامة الطهراني

قال العلامة الطهراني في طبقات الأعلام:

كتب له البهائي إجازة في غاية التعظيم والتجليل في سنة1020.

وقد ولد بميس في جبل عامل وهاجر شابًا إلى مشهد وتتلمذ هناك على الملا عبد الله التستري وبعد هجوم الأوزبك (وقتل التستري في 997) فرّ إلى قزوين وكان بها مدرسًا وبعد مقتلة قزوين انتقل مع بلاط الشاه إلى أصفهان وبنى الشاه في ميدان (نقش جهان) له مسجدًا عرف باسمه.

ثم ذكر محمد زمان - أحد نظّار مدرسة الشيخ لطف الله الذي كتب (فرائد الفوائد) في أحوال المدارس والمساجد- ما جاء في "عالم آرا" من المشاجرة بين لطف الله ومحمد زمان وعبد الله التستري وتصالحهما بعد وفاة التستري في 1021.

ولما اعترض بعض علماء أصفهان على اعتكافه في مسجد بناه الجائر أي حكومة الشاه عباس في ميدان (نقش جهان) رد عليه في رسالته (الاعتكافية) ووصف فيه معاصريه بـ"الشعوبية". ينعكس فيها بعض المشاحنات بين الأخباريين والمهاجرين - القائلين بوجوب الجمعة وتفريق الصلوات - وبين الأصوليين المحليين([5]).

مؤلفاته

أقول: وللمترجَم العديد من الكتب التي مازالت مخطوطة ولم يطبع منها شيء حتى الآن.

منها: مجموعة تحتوي على 17 رسالة موجودة في مكتبة آية الله العظمى السيد البروجردي في مدينة قم ضمن مجلد واحد وهي بخطه:

(1): حاشية مختلف الشيعة. (2): فسخ البيع. (3): الصحيح في عقد النكاح. (4): الإعتكاف. (5): تحريم الموطوءة شبهة. (6): إعادة الصلاة للمصلي. (7): قصر الصلاة في المواضع الأربعة. (8): نزهة الناظر في رد القاصر. (9): الرد على أجوبة الهاوي. (10): حكم الاستنجاء بالعظم والروث. (11): إستبراء الأمة الباكرة. (12): الطواف من دون إدخال الحجر فيه.(13): شرح حديث علي بن رئاب.(14): مسائل شتى. (15): إعادة نماز (فارسي).(16): اختلاف الزوجين في المهر.(17): تحقيقات حول الخمس.

ومنها: رسائله الموجودة في مكتبة أمير المؤمنين في النجف الأشرف.

وإليك بعضها:

(18): رد على تشنيع بعض المعاصرين على الشهيد الثاني في شرحه للشرايع.

(19): جواب على اعتراض بعض المعاصرين على بعض ألفاظ عقد النكاح.

(20): أجوبة بعض الاعتراضات عليه جرت في محاورات بينه وبن بعض معاصريه.

(21): رسالة في بيان السراية.

(22): دفع لما ذكره بعضهم في الرد على المحقق الثاني في شرحه على قواعد العلامة.

(23): رسالة الوثاق والعقال للعشواء في الليلة الظلماء بقوى الحبال.

(24): رسالة في الاعتكاف.

(25): رسالة في حكم من مات عن زوجة دائمة وأولاد.

(26): **ومنها** الرسالة الإعتكافية الموجودة في مشهد من موقوفات ابن خاتون العاملي. رقمها: (2244).

وفاته

ذكر إسكندر بيك تركمان في كتابه "تاريخ عالم آرا عباسي" المكتوب بالفارسية: أن وفاة الشيخ لطف الله الميسي العاملي كانت في سنة (1032) بعد أن مرض حيث كان يتهيأ للرحيل إلى بغداد بعد فتحها من قبل الشاه عباس الصفوي في هذا العام([6]).

[1] - مستدركات أعيان الشيعة. ج6 ص 246.

[2] - رياض العلماء: ج (4) ص (417- 418). بتصرف.

[3] - أعيان الشيعة ج 9 ص 38. (الراووق: إناء).

[4] - للاطلاع على الموضوع كاملاً: مستدركات أعيان الشيعة ج 1 ص 136.

[5] - للاطلاع على الموضوع كاملاً: طبقات أعلام الشيعة ج 5 ص 477-478.

[6] - تاريخ عالم آرا عباسي (تحقيق أفشار). ج 2 ص 1007.

رسالة النجف — العدد العاشر

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية · http://127.0.0.1:8000

جميع الحقوق محفوظة